عبد الجبار السحيمي

الممكن من المستحيل

قصص

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

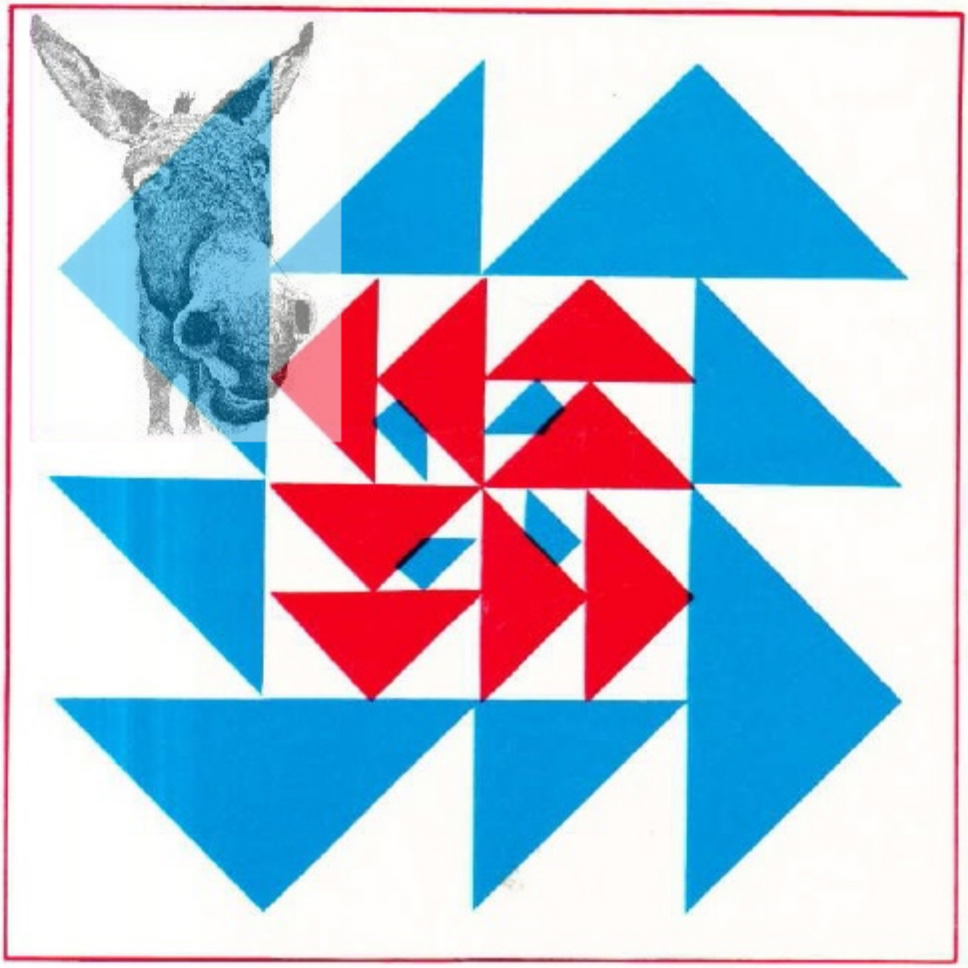

عيون

الممكن من المستحيل

الكتـاب : الممكن من المستحيل
المؤلـف : عبد الجبار السحيمي
الناشـر : عيون المقالات، ص.ب. 10958 باندونغ
البيـضاء 01 ـ ت: 317109
الطبعـة : الثانية ـ الدار البيضاء 1988
المطبعة : النجاح الجديدة
الايداع : 1988/804

عبد الجبار السحيمي

الممكن من المستحيل

قصص

عيون

المساء الأخير

تحترق السيجارة، ويرتشف قطرة سوداء وينتظر. !
من شهر. من سنة، تشهد أمسية السبت هذا الانتظار، وهناك دائما سيجارة تحترق، وكأس قهوة ومقعد فارغ ينتظر فاطمة.

حين تأتي، سيكون على وجهها نفس التعب القديم كالزمن، تلقي نفسها على الكرسي قبالته، وترمي نظراتها على الناس، ثم تسرح بعيدا، وحين تعود إليه يقف الجرسون فوق رأسها:
ـ قهوة. ..

يتساءل الجرسون، كعادته:
ـ بالحليب. . ؟
ـ قلت لك قهوة. . ، يعني من غير حليب.

لايدري لماذا تغضب سريعا، لماذا تبدو متعبة أبدا؟

يسألها ساخرا: هل ضايقك أحد في الطريق؟

تضحك ضحكتها القصيرة المرة، ثم تلعق شفتيها:
ـ أنا لايضايقني أحد. .
ـ ماذا بك إذن؟
ـ لاشيء، أنا هكذا. .
ـ هل ترغبين في المرة القادمة أن نغير المقهى. .
ـ ليس ضروريا. هنا أو هناك. . كلها أماكن بلا طعم.

منذ التقيا. في يوم لا يذكره، كانت لا تريد أن تتغير.

كان قد دعاها في البداية أن تلتقي به بعيدا عن الآخرين، كان يعتبر أن الامر سر بينهما، ولكنه فجيء بها، حين أراد أن يترك المجموعة، تقول بصوت سمعوه جميعا:

ـ أنا لا أخرج من الكلية حتى الساعة الخامسة، هل يمكن أن تنتظرني حتى هذا الوقت..

وهكذا فقط جعلت لقاءهما يبدو من غير خصوصية. ومنذ ذلك اليوم، كانت أمسية السبت تأخذ طابعا واحدا، يفتح كتابا بعد الغذاء، أو يكتب رسالة إلى الاخرى البعيدة، أو ينتظر فتاة تأتي سريعة وخائفة، ثم يلبس ثيابه لان الساعة الخامسة تقترب، ويذهب إلى المقهى لينتظر هناك.

من شهر، من سنة، تشهد أمسية السبت هذا الانتظار.

ـ هل أحبها؟

كان سؤاله بلا معنى، لأنه كان قد اعترف من قبل أنه يحبها. ليس يدري لماذا؟

ولكنه يحبها.. هكذا، بضحكتها القصيرة المرة، وبوجهها المتعب أبدا، وبغضبها الذي لاينتهي..

ـ ولكن.. ماذا بعد؟

الآن سؤاله له معنى..

في بيته، حين كان يحتضن يدها بين يديه، كانت تقابل ذلك من غير انفعال.

وحين كان يقبلها، فإنها لاتمانع، ولكنها كانت تقابل شفتيه على شفتيها ببرود، كأنها الامر لايعنيها..

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

ـ أنت لاتشاركنني؟

قال لها، ذلك المساء، فابتعدت عنه إلى علبة السجائر، والتقطت واحدة، وحين كانت تنفث دخانها بعصبية، قالت:

ـ أتعرف.. هذا كله سخيف؟ أنا لاأحترم العواطف، ولا أومن بها..

ـ لماذا إذن تتركين لي نفسك؟.

ـ لان هذا يعجبك، ذلك كل ما في الامر.

ـ وأنت.. ألا يعجبك؟

ـ هذا سخيف كما قلت لك.

ـ أنت لاتحبينني إذن؟

ـ الحب أكبر سخافة في حياتنا، وأنا لا اؤمن به.

ـ وإذن؟..

ـ وإذن، فهذه علاقتنا، وأنا لم أنته بعد إلى قرار ما. علينا أن نقبل ذلك..

ـ ولكنك تعرفين أنني أحبك..

ـ هذا شيء لم أفكر به، ولاأريد أن تجعله التزاما على نفسك. نحن نلتقي، نتحدث، وهذا أفعله مع الآخرين أيضا.

ـ هل تتركين لهم نفسك.. أيضا؟

ارتبكت قليلا. ورمت السيجارة بلا اتجاه، ثم بدا أنها تريد أن تكذب:

ـ هل أنت تغار؟

ذهبا ذلك اليوم إلى السينما، وظلا صامتين في الظلام، ثم مدت يدها تلتقط يده، كانت مفاجأة.

ضحكت قليلا، وحين خرجا في نهاية الليل، كان جسدها يبدو ممتلئا.

أعلنت:

ـ سنذهب إلى الشارع..

ـ لا ترغبين في النوم؟

ـ ليس الآن، إنني جائعة قليلا.

وفي الطريق، في ذلك الليل من أبريل، توقفت عن المسير، ثم قالت:

ـ قبلني الآن..

لم تحاول أن تشاركه هذه المرة أيضا، ولكن عينيها كانتا مغمضتين، ثم ابتعدت قليلا، وتساءلت:

ـ هل تظن أن حياة «زوربا» مقنعة؟

كان يعرف أنها ستناقش الفيلم، فهي هكذا، تبدو أنها غير مهتمة بموضوع ما، ثم تثيره فجأة:

ـ إنني أحلم بهذه الحياة. ولكنني لاأستطيعها في الواقع.

ـ أنت من جميع الوجوه ممتاز، ولكنك خضعت للمجتمع، وهذا سيء.

ضحك من غير اهتمام ذلك المساء.. وكانت في ذهنه فكرة تثقل عليه:

ـ كيف تنتهي هذه العلاقة؟

الآن والقهوة الباردة أمامه، وهو ينتظرها ككل مساء، عادت الفكرة تثقل عليه، ماذا بعد؟

إنها تبدو واثقة من نفسها أكثر من العادة. ورأسها عامر

بالافكار، ولاشيء يقنعها، لاشيء يريحها. إنها تنظر إلى العالم من فوق، من الخارج، وهي كفتاة مثقفة، يبدو لها أن الآخرين غارقون في التفاهة والسطحية، وأنها تتحملهم، من غير أن تشاركهم أبدا..

وألقى نظرة إلى الساعة. بعد عشر دقائق ستكون هنا أمامه، ستلقي نفسها بإعياء على الكرسي قبالته، سيكون وجهها متعبا كالزمن، وتطلب قهوة بلا حليب، لاشيء يتغير، إنه يعرفها جيدا، ستتجول في وجوه الناس بلا مبالاة، ثم تسرح قليلا.

وقرر فجأة: أنها معقدة. أنها تعيش حياة مفترضة.

ثم دفع ثمن القهوة، وقام مسرعا أمام نظرات الجرسون المندهشة، وحين وجد نفسه بعد قليل وسط الناس هاربا منها تماما، أطلق تنهيدة حارة، وفكر:

- إنني أريد فتاة بسيطة.. فتاة تحمر خجلا عندما أغازلها.. وترتعش حين أقبلها.

حمدان

مرت الآن تسع سنوات على ذلك التاريخ المغرق في القدم.

عيناه تجحظان في عينيها فيحس أن سمراء الطفولة بلا لون، بلا طعم، برائحة قوية هي خليط من البصل والتوابل.

كان صوتها، حين لا تصيح، يهدر كبحر.. ولكنها تقضي كل يومها في صياح متواصل، معه، ومع الأولاد، فقد أعطت ارتجافاتها بنتاً وولدين، والبنت هي أيضاً، طيبة كأمها، عامرة بملامح السمراء القديمة التي كان يتمنى أن يقفل عليها بيته. هو الآن يعيش بين سمراوتين، الكبرى تقضي يومها في صياحاتها المدوية، والصغرى، ابنتهما، تظل تتلقى صياحاته هو، فقد كان يريد أن لا يبقى الصامت الوحيد..

المسيح كان أعزب، من أجل ذلك تقبل أن يجمع في قلبه كل آلام البشر.

أما حمدان الموظف الصغير في المحكمة، فكان قد قال نعم منذ تسع سنوات، ومنذ ذلك الوقت تقبل أن يعيش آلامه الخاصة، منذ ذلك الوقت حكم على نفسه بهذا الألم..

قالت زهرة، حين رأته غارقاً في دخان السيجار الرخيص.

ـ ستقضي عمرك خاملا هكذا.

لم تكن تصيح هذه المرة، ولكن صوتها كان يهدر كبحر. . ورفع إليها عينيه، أغرقهما في عينيها الكبيرتين فلم يحس ارتجافه القديم، كل شيء مضى في ذلك الركن من المدينة، حتى الذكريات البعيدة أصبحت لا تطاق. .

واحد منهما سوف يبعث الآخر الى مستشفى المجانين، هو في صمته الأسود وهي في صيحاتها المدوية البيضاء. .

ـ هل نام الأطفال؟

أغرقت زهرة في الضحك، وأحس أنها ستنتصر عليه، يداها المعروقتان الجافتان تقبضان على خصرها اللحمي. وهي تغرق في الضحك. .

كان دوره هذه المرة أن ينتظر، وحين تنتهي من هذا الضحك المريب، سوف تفتح المعركة:

ـ الأطفال في الصالون يتفرجون، التلفزيون يشدهم إليه كما تعرف. .

السكاكين تنغرس في قلبه.

كان يعرف، بعض الجارات يحكين عن سهرات التلفزيون وهي تعوي ككلب كلما عاد إلى البيت:

ـ ادفع بعض الثمن فقط، والباقي على أقساط. .

من أين يأتيه بعض الثمن؟ الخبز لا يرحم أحداً، والتلفزيون لن يشبعهم، ولكن زهرة لن تعرف ذلك أبداً. .

حين كانت تلتقي به في ركن المدينة الذي لا يضيء به مصباح، كانت تحس أنه يمتلك الدنيا، لم يكن قد تحدث لها عن مشكلاته في المدينة الكبيرة، وكان يود، أنها ستفهمه جيداً وسوف ترفض أن

تعذبه بالتفاتاتها المتوحشة إلى البيت الفارغ من كل أثاث.

لقد قالت له ذات يوم، وكان ذلك قبل بضعة أسابيع من زواجهما: لا تلق هماً لشيء، سندبر حياتنا معاً، حين يكون الحب لن نحتاج لشيء.

حين لا يكون شيء، لا يكون الحب أيضاً، انه يموت ببطء، يختنق في صيحات زهرة المدوية كل يوم:
- كل شيء في غاية السوء هنا، أنا لا أدري كيف قبلت الزواج منك. لا أدري أين كان رأسي يوم قبلت؟

حمدان يذكر. فقد كان رأسها مختبئاً في صدره يوم قبلت، ولكنه لم يكن يظن أنها تعوي هكذا، ففي ذلك الركن المظلم من المدينة كانت صامتة أبداً، وكانت عيناها تضجان بالشوق والحب، عيناها الفارغتانُ الآن كعيني بقرة.
- بيت بلا ثلاجة، بلا تلفزيون ما قيمته؟

ليس أمامه غير الصمت ودخان السيجار الرخيص يفني فيه ساعات ليله الكئيبة، فمن زمان بعيد لم يعد جسمها دافئاً كما كان..
- زهرة، أنت تعرفين الحالة كلها؟ من أين آتيك؟..؟
كالعادة، لن تتركه يكمل كلماته، عيناها تجحظان كلبوءة، ويداها المعروقتان تنغرسان في بطنها:

- وأسيادك الآخرون، زملاؤك في المحكمة، أليست حالتهم مثل حالتك، فكيف اذن اشتروا الفيلا والأثاث الفخم والتلفزيون والثلاجة والسيارة..؟

أسياده الآخرون يضحكون من غبائه.. ففي هذه الأيام تحولت

الأشياء كلها، ولم يعد يبرر الشرف غير الغباء. يأخذون أربعمائة درهم مثله كل شهر، فتتحول بين أيديهم فيلات وسيارات وثلاجات، وهو لا يستطيع أن يضمن بهذه الأجرة أكلا مشبعاً لأولاده طيلة الشهر.. منتهى الغباء.

لكن أحداً، مع ذلك، لا يريد أن ينصفه، فهو لا شك يتقبل رشاوي مثل كل زملائه، هكذا قالت إحدى الجارات لزوجته، ومنذ ذلك اليوم عرفت زهرة كل شيء:

ـ افعل مثلهم.. لماذا نظل وحدنا على هذه الحال؟

كان لقاؤهما في الركن المظلم بالمدينة لقاء شريفاً، ولم يكن للحب، حينذاك، مطالب كثيرة كما هي الآن.

ـ المطالب تقتل الحب.

متى توقف زهرة عذابها له.

في أعماقه يصرخ الجواب: الأمر سهل، ابحث عن وسيلتك أيضاً لتشتري لها أثاثاً ممتازاً للبيت، وتلفزيون، وسيارة..

كل أطفاله الصغار يعيشون على أعصابهم كل هذا القلق الذي يظل البيت..

زهرة تصيح، وهو يصمت. هل فقد قيمته بينهم؟ كانت خديجة، البنت الكبرى السمراء كأمها، تنتظر استيقاظته:

متى تشتري الحذاء؟

كل شيء له مطالب، حتى تكون أباً، يجب أن تعطي الفدية: انه حذاء هذه المرة.

وتلتقط زهرة طرف الخيط لتنطق:

ـ ابنتك تمشي كأنها حافية، هل رأيت ثقوب حذائها؟

يغضب، في المحكمة ينتظره عمل كثير، وهناك الحاج بوشعيب يغريه بمائة ألف اذا أحرق ملف خصمه كاملا، وتضيع الدعوى، ويربح الحاج بوشعيب. . ينفض الغطاء، وتتحرك يداه بلا هوادة: صفعة. . صفعة.

ويرتفع عويل البنت البكر السمراء، ويتجمع الطفلان حولها بشماتة، وتهرع زهرة:
ـ ذل الرجال، تطلب لك حذاء فتصفعها. .

صباح سيء آخر، والدخان الأسود على الريق، وهو هارب من البيت بلا مزاج. .
ـ لم يكن طيبا أن أضربها. .

الدموع تتحجر في عينيه، لقد كان يحبها، كان يحب ولديه، كان يحب زهرة دائماً، فلماذا هو ليس سعيداً كالآخرين؟ ما هي مطالب هذه السعادة؟ تلفزيون، وحذاء. . ثم ماذا؟

يا ليتهم يفهمون أنه لا يستطيع ذلك:
«ـ ماذا تخسر اذا فعلتها مرة واحدة، تأخذ مائة ألف من الحاج بوشعيب وتتلف ملف الدعوى. . وتشتري حذاء لخديجة وتلفزيوناً للبيت يفرح به الأولاد. . كم هو يحب أن يفرح الأولاد. . »

ولكن ضميره سيعذبه كثيراً
«ـ الضمير ليس قاسياً حتى يرفض سعادة الأولاد الصغار، فلتكن العملية مرة واحدة. . »

فكره يعذبه بلا هوادة، ومن بعيد، حين لاح الباب الكبير للمحكمة، كان يستطيع أن يميز هناك شبح الحاج بوشعيب ينتظر، وكانت الأصوات تختلط في ذهنه: مائة ألف وتحرق الملف يا

حمدان، حذاء تلفزيون، أسياده الآخرون..

مد يديه، من غير سلام، يلتقط مائة ألف، وكان الحاج بوشعيب يضحك بخبث:

احرق الملف كاملا، كل زملائك يفعلون ذلك ياحمدان..

* * *

زهرة، عادت كما كانت قديماً، وجسمها، عاد دافئاً مثل الأيام الأولى..

كان هناك تلفزيون في البيت، وحذاء جديد في رجل خديجة.

كلهم يفعلون ذلك...

وصاح حمدان كأحمق:

ـ اسمعي يازهرة، إنني لن أفعل ذلك بعد.. ثم أغرق في بكاء ندم لم يكن يفهمه أحد.

في المدينة

ذهبت حبيبتي، أعطتني قبلة وابتسمت، ثم اختفت وراء باب كبير، واختفى كل شيء . .

الشمس تموت في السماء، شاحبة، كما كان وجه أبي شاحبا وهو يموت :

ـ قولي وصيتك ايتها الشمس، كما قالها أبي قبل أن يموت . .

أنـا أحفظ وصيتـه، رأيت في عينيه صورة كبـيرة لامي وإخـوتي الصغـار. ثم قال لي (ارعهم أنت بعـدي). ولم يوص بي أحـدا ليرعاني ثم مات؟

ـ قولي وصيتك . .

رأيت في وجه الشمس الشاحب ملايين الناس، كالنمل، وقالت الشمس :

ـ ارعهم أنت.

ولم أكن أنـا هنـاك بين المـلايين، ثم ماتت الشمس. دخلت المـدينـة، على شفتي طعم قبلة، ثم نزلت قطرات من الـدمـع، فمسحت الـطعم على شفتي، لم يسـألني أحـد لماذا أبكي، فهم لايعرفون أن الشمس قد ماتت، ولم توص بي أحدا . .

طرقت خطواتي أرض المـدينـة الصامتة، كان الناس يدخلون

بيوتهم، كل الناس، وعيناي ترقبان وجوههم: كلها وجوه أعرفها، رأيتها قبل أن تموت الشمس.

التقت عيناي بهم، ابتسمت، ولم يبتسم واحد منهم، كانوا يسرعون الى بيوتهم، لم يروني، لم يعرفوني، أوقفت بعضهم، وعندما فتحت فمي لاتحدث، ذهبوا جميعا، قبل أن تمطر السماء..

بحثت في جيبي عن علبة السجاير، ثم أشعلت واحدة، وكان الليل قد ولد تماما، وظلت قدماي تضربان أرض الشارع في المدينة الكبيرة الصامتة، والوجوه تمر بي سريعة دون أن تقف، دون أن ترد على ابتسامتي.. أوقفت طفلا صغيرا وسألته:

ـ لقد ولد الليل، لماذا أنت هنا، هل مات أبوك، هل رأيت الشمس قبل أن....

ولكنه ضربني بحذائه ومضى مسرعا.

أوقفت رجلا في الطريق، كان وجهه شاحبا كوجه أبي، ومددت له سيجارة، تركها في يدي ومضى فأسرعت وراءه وقلت:

ـ سوف تموت، هل تقول وصيتك الآن؟

كما لو أنه لم يسمع كلماتي واصل طريقه الطويل، وأخذت أضرب الارض بقدمي..

كنت أسير وحدي في الليل، وقد أضاءت الشارع بضعة مصابيح، فجأة خرج من الأزبال فأر كبير، وحدق في عيني فابتسمت له، ولكنه لم يجب، وقلت:

ـ أهلا بصديق الليل

فحرك أذنيه بعنف، وعاد إلى قمامة الأزبال.

المدينة فارغة تماما، صامتة في الليل، والناس الذين مروا بي.. لم يردوا ابتساماتي.

لماذا ذهبت حبيبتي، لماذا تركتها تذهب؟

لقد اختفت وراء الباب الكبير، اختفت تماما ولن أراها بعد، فسوف تتزوج في الصباح..

لم تكن بي حاجة لان أعود الى البيت، لقد نامت أمي، وإخوتي الصغار، وأنا أبحث الآن في الليل عن أبناء الشمس، لأرعاهم كما أوصتني قبل أن تموت..

ابتسمت (للجرسون) فذهب، ثم عاد يحمل سائلا أسود، وضعه أمامي، ومعه ورقة صغيرة عليها الثمن.

أشعلت سيجارة، ورحت أفكر في المدينة الكبيرة التي لايبتسم أهلها، لا يعرفون أحدا، لا يتحدثون، ومن الساعة المعلقة في طرفي الشارع انطلقت دقات كثيرة.. مائة، مائتان، ألف، كانت الساعة تحسب عمر الزمان، عمر الصمت والحزن في المدينة.

انطفأت السيجارة فأشعلتها من جديد، ورفعت الكأس إلى فمي..

من بعيد، كان طيف ما يقترب..

كان ماسح أحذية يحمل مصنعه الصغير، دنياه الفارغة.

وابتسمت، فقد حسبت انني التقيت أخيرا، واحدا من الناس، يبتسم لي.. ويتحدث، وأرعاه كما تريد الشمس..

وعندما رآني ابتسم، استدار وأخذ يجري.

حدقت في ثيابي، لم تكن ثياب رجال البوليس فيخاف الصغير..

وقف أمامي الجرسون، وعندما وضعت في يده الثمن، كان مايزال شاحبا، قلت له:

ـ أنت ستموت، قل وصيتك.

رفع يده، كما لو كان سيضربني، ووضعت علبة الكبريت في جيبي، ثم ذهبت.

الليل ينمو، والساعة تحسب عمر الزمان، والناس موتى، المدينة كلها ميتة، ولكنها لم تقل وصيتها بعد.

في شارع قريب من البيت رأيت فتاة صغيرة لم تجد رجلا في المدينة..

أخذتها من يدها، وحاولت أن تمانع، ولكني أفهمتها أن الشمس هي التي أرادت ذلك، فقد أوصتني بها قبل أن تموت..

قالت: أين؟

فتحت لها الباب، ودخلنا الغرفة الصغيرة، كانت أمي نائمة، وإخوتي الصغار، وابتسمت لها:

ـ هل أوصتك الشمس أن تبتسم لي؟

أطفأت المصباح في الغرفة، ومن ثقوب الباب، رأيت الليل يموت، فلم أسأله وصيته.

السجن الكبير

«شيء مضحك أن تجد الانسانية مكانا لها بين قضبان السجن. .»

وواصل نعاسه وهو يبتسم باستخفاف، ويفكر:
« في الصباح أعطوه الفطور لأنه كان جائعا، وأعطوه معه دواء ضد الـزكام، وفي المساء أخذوه لينفذوا فيه حكم الاعدام، فما يفترق عنده، أن يموت وهو مختنق بالزكام، وهو جائع، أو أن يموت في صحته الكاملة. .»

وأخذ يسعل، ويهتز جسمه فوق فراش العشب، وتمتم لنفسه:
ـ « يعطوننا المرض في هذا المكان القذر، ثم يعطوننا الدواء، الملاعين».

ثم عاد يسعل، وعاد جسمه كله يهتز بقوة، بينما كان مازال يفكر:
ـ «كان لايعرف ماذا سيفعلون به، أصبح طفلا صغيرا في لحظة واحدة، وصرخ كالاطفال، وتمسك بحديدة الفراش، ورنا إلي من خلال الدموع، ثم فتح فمه، وصرخ برعب، وتخلى عن كل رعبه بشكل فجائي، وذهب معهم لينفذوا فيه حكم الاعدام، فراشه فارغ الآن. . لقد كان وديعة هنا، وديعة عند من؟ السجان؟ ومن وضعـه هنـا، ومن وضع القاضي نفسه، ذلك الذي يحكم بقتل

الناس ويحكم على الآخرين بالسجن، بأن يحيوا وهم لايحيون في نفس الوقت، مجرد عيون مفتوحة دون أن ترى شيئا، وأنفاس تطلع دون أن تعرف لماذا، بلا أية حرية، الاجسام تتحرك، في قوقعة إسمها السجن، سجن كبير، حتى حرية الموت يمنعونها علينا، فهم وحدهم عندهم الحق أن يقتلوا، أما نحن فممنوع علينا ذلك، ممنوع علينا أن ندخل معنا حبالا أو حديدة أو زجاجا، يجب أن نموت بقانون، فالقانون وحده يحكم هنا، ومن وضع ذلك االقانون؟ ومن خلق هذا السجن؟ الملاعين»

وقهقه بصوت عال، ثم انتابته من جديد نوبة السعال، والتفت إلى علبة الاقراص إلى جانبه بشماتة، وقال:

ـ السجن والانسانية، ذلك جميل، حر أن أقف، وأن أفكر، وأن أخطو على أرض هذه الزنزانة، وأن أظل حيا، لكن لماذا كل ذلك وأنا داخل السجن؟ لماذا أقف، ولماذا أفكر؟ مادام كل شيء مرسوما من الاول ومحدودا بهذه القضبان، وبهذه الاعوام التي أصدرها القاضي من فوق منصته.. محتميا بالقانون؟

لماذا أشرب أقراصا؟ لأكن حرا مرة واحدة في أن أرفض الاقراص، لولم أكن هنا ما كنت لأعرف المرض، والاقراص لن تفعل شيئا غير أن تزيل السعال، هه، إنهم إنسانيون حقا عندما يشغلون تفكيرهم بنا إلى هذا الحد، فيقدموا لنا أقراصا، ويضعوا لنا داخل الزنزانة باقة ورد نتملى بها، منظر جميل.. الاحمر والاخضر، يحاولون أن يكونوا آلهة على حسابنا، وكما خلق الله الطبيعة، يضعون لنا مختصرا لها هنا.. باقة ورد..

ذلك القاضي.. لقد حكم بالسجن المؤبد، يعني موتا كل يوم، بكل بساطة تلفظ حكمه، السجن مدى الحياة، وهكذا، من أجل

تلك الكلمة الصغيرة، أظل هنا، خارج الحياة ولكنني أحيا، أو هم يعتبرونني كذلك، فأنا أنا أفتح عيني وأملأ فراشا، وصاحبي الآخر، أغمض عينيه، ولم يعد يملأ فراشا، ذلك هو كل الفارق بين حياتي وموته، بينما نشترك في كل شيء آخر. . كل شيء. . الموت هنا هو الحياة. . والحياة هي الموت».

كانت عيناه في اتجاه الاقراص، ولكنه لم يكن يراها، فقد امتلأتا بالدموع. .

وكان يريد أن يلتقط سيجارة، عندما سمع المفتاح يدور في قفل الزنزانة، ثم سمع صرير الباب وهو يفتح، ودخل السجان، وهز رأسه مبتسما، ثم سأل:

ـ كيف الحال؟

ـ . . . .

ـ سوف تسافر غدا. .

ـ أسافر؟ لماذا ذلك؟

ـ أنت مريض بالسل، وقد ارتأى الطبيب أن نأخذك بعيدا عن البحر. .

ـ السل. . هل ذلك ماقاله الطبيب؟

ـ نعم، وسوف نسافر غدا، يجب أن تستعد لذلك. . ألا تريد أي شيء الآن؟

ـ . . . .

ـ طاب مساؤك إذن. .

وخرج السجان، وأقفل الباب وراءه، وظل السجين محدقا في الخواء، السل، لكم كان يخشاه، ولكن هاهو ذا يلتقي به فلا يحس

أي حزن لذلك، ففي السجن يستوي كل شيء، المريض والصحيح، وماذا يفعلون بصحتهم داخل السجن.. ومع الحكم الابدي، ذلك الموت الذي يتكرر كلما أشرقت الشمس؟ ولكنهم سوف ينقلونه إلى سجن صحي، جميل ذلك، إنسانية كبيرة، هناك سوف يدخل من جديد إلى الزنزانة، سوف تغلق عليه، وسوف يسعل، وسوف يدخن، وسوف يأكل، ثم بعد ذلك كله؟ الزنزانة هناك لها رقم آخر ولكن بلا أي فارق، فهو داخلها، داخل أي مكان.. محكوم عليه أن لا يكون حرا طيلة حياته، قبر فيه أكل، وباقة ورد، وعيون مفتوحة، وقلب يدق، وعقل يفكر، وفراش ممتلىء، ثم لاشيء آخر غير هذا المكان الذي لايسمى قبرا، لان الانسان فيه يستطيع أن يتعذب بالحرية المضحكة، المعطاة له، حرية القيود التي وضعها القاضي والسجان والقانون، حرية أن يحيا وهو لايحيا، وأن يفتح عينيه ولا يرى شيئا، وأن تستمر دقات القلب لتعلن أنه مايزال يتعذب..

وأشعل سيجارة وَضعها بين شفتيه، ثم حمل علبة الاقراص في يده، قرصان إثنان داخل العلبةفهم لايضعون أكثر من ذلك خشية أن ينتحر بها، أن يموت موتا غير قانوني..

لماذا لم يحكموا عليه من الاول بالموت، ويريحوه من كل هذا العذاب؟ ذلك لان القانون يريد ذلك، القانون الاعرج الذي يحكم بالسجن مدى الحياة، أي أنه يترك الانسان في حالة انتظار للموت داخل زنزانة، دون أن يكون له أي أمل.. عذاب طويل تكون نهايته الموت.. أو موت تكون نهايته الموت.

فماذا يستفيد المحكوم عليه بالسجن طول العمر من أن يبقى حيا داخل قضبان، ودون أن يكون هناك شيء يفعله بحياته غير أن

يتمدد فوق فراش قذر إذا كان مريضا، أن يتمدد هكذا باستمرار، ثلاثين سنة أو أربعين أو مائة . .

وكان يسعل وهو يفكر، وكان القرصان قد ذابا بين لسانه، وقد انطفأت السيجارة التي وضعها على الارض بعد أن أخذ منها أنفاسا قليلة، ثم حاول أن يتخيل سجنه الجديد، في ذلك البلد الآخر . . ذلك المكان الآخر في الجبل، الباب حديدي يصر وهو ينفتح ليقتبل معذبا جديدا، وتطالعك وراءه سحنة قاسية، سحنة سجان هرم يكرر عمله بجمود دون أن يتساءل يوماعن جدواه، ويأخذك السجان عبر ممر طويل مظلم إلى باب آخر، حيث يسلمك إلى الحارس، ثم يأخذك الحارس عبر ممرات كثيرة قبل أن ينتهي بك إلى مكتب مدير للسجن، حتى السجن له مدير، ويأخذ هذا الاخير الاسم بلا اهتمام، ثم يتابعون بك الطريق نحو غرفة ضيقة، فارغة إلا من الفراش والجدران الباردة تتفتح في إحداها كوة صغيرة، ويقفلون الباب . .

وعندما انتهى من تخيلاته، وجد أنه تخيل سجنه القديم هذا، وابتسم وهو يرى أن السجن في أي مكان، هو السجن بلا أي فارق . .

والتقط السيجارة من الارض، وأشعلها من جديد، ثم تابع تخيلاته .

وفي الصباح، كان مازال مفتح العينين يفكر، عندما سمع المفتاح في القفل، وصر الباب وهو ينفتح، ثم دخل السجان :
ـ هل أنت مستعد؟

وحمل نفسه من فوق السرير، والتقط علبة السجائر فدسها في جيبه ثم أعلن : أنا مستعد . وخرجا معا . .

كانت الطريق بعيدة، وقدر السجان أنهما سيصلان في منتصف الليل إذا أسرع قليلا، وأشعل لنفسه سيجارة وهو يلعن هذا السجن الذي يعيش فيه كأي سجين آخر، والتفت إلى جانبه بنصف عين وهو يتتبع الطريق بنصفها الآخر وقال:

ـ تعرف، تمنيت لو نقلت أنا الآخر إلى ذلك السجن في الجبل..

ـ وهل أنت مريض بالسل؟

ـ من يدري .. أنا لا أعرف مرضي

ـ لما لا تقدم طلبا بذلك؟

ـ تلك قيودنا نحن، تقديم طلب!

وضحكا معا ضحكة صغيرة سرعان ما أخفتها تقطيبة علت الوجهين معا، وابتعد أحدهما عن الآخر، وبدت الطريق في ذلك الصباح ندية وهي تستقبل عجلات السيارة، وسعل السجين قبل أن يستسلم إلى الصمت والتخيلات من جديد.. إنه لم يضع السلاسل في يديه، كم هو رقيق هذا السجان، إنهما يبدوان معا داخل السيارة زملاء، كأنهما ليس سجينا وسجانا، وهو أيضا لم يخفه رغم أنه يعرف أنه مجرم كبير، ترى لماذا يطمئن إليه كل هذا الاطمئنان؟ كأنهما زملاء، لايعرف فيهما من السجين ومن السجان؟ وابتسم ثم ضحك، والتفت إليه السائق وقد ارتسمت فوق شفتيه ابتسامة صغيرة، وقال:

ـ خير، أنت تبتسم في النهاية.

ـ في النهاية .. في البداية سواء؟

ـ ولكنك تحس بالرضا وذلك ما لم تكن تعرفه..

ـ لانهم سوف يصلحون لنا السجن

ـ أجل، سوف يصبح كالجنة..

ـ ولكنه سيبقى سجنا . . جنة بلا حياة . . بلا حرية ، ماذا نفعل في جنة لاحرية لنا فيها؟
ـ لن تفكر كذلك بعد ، فعندما يصلحون لكم السجن سوف يوجد إلى جانبك جهاز راديو تفتحه في أي وقت ، بل إنني سمعت أنهم سيقدمون لكم المرأة كل أسبوع . . ذلك جميل
ـ المرأة . . الحور العين ، إننا نفتح جهاز الراديو بحركة اسمها الحرية . . ونحن نريد المرأة لاننا نحس في إرادتنا الحرية ، اما أن يقدموها لنا ، فذلك لا يعطينا أي متعة . .
ـ أنت مكانك في الجامعة . . أستاذ في الكلية . .
ـ ولكن ذلك لم يمنع أن أكون مجرما في السجن . . ان الامرين عندي لايختلفان ، هنا أو هناك . . مخلوقات تنقصها الحرية ، راقب الطريق حتى لاتموت في حادثة تافهة . .

وعادا يبتسمان معا ، ثم ساد بينهما الصمت من جديد فلم يقطعه بعد غير وقوف السيارة عند منتصف النهار ، ونزلا إلى مطعم في الطريق ليأكلا ، ويتزودا بماء للسيارة ، وبالسجائر ، قبل أن يواصلا الطريق . .

وفي منتصف الليل كان السجان يطرق باب سجن الجبل ، بينما راح السجين يتطلع إلى أسواره بلا مبالاة وهو يصفر لحنا لم يسبق له أن سمعه ، وأطل من كوة الباب الحديدي وجه سجان آخر:
ـ من؟
ـ افتح . . .
ـ من أنت؟
ـ لقد جئت بسجين من المدينة ، ألم تخبر بذلك؟
ـ لا ،

ـ افتح أولا . .
ـ نحن لانفتح الباب في الليل . .
ـ هل هذا أمر؟
ـ نعم، لاأحد يدخل بالليل . .
ـ أين نبيت إذن؟
ـ في المدينة . . وتعالوا هنا في الصباح، فالسجن لن يهرب . .

وظل الوجه يطل من الكوة، بينما التفت السجان إلى سجينه وهو يبتسم إليه ببلاهة، كأنه يعتذر، وعندما توجها إلى السيارة الكبيرة من جديد، كان الوجه مازال يطل من الكوة.

وقال السجان:

ـ ها أنت مرة أخرى تتمتع بالحرية، ليلة أخرى تقضيها خارج السجن . .
ـ خارج السجن، داخل السجن، لافارق، فأنا سجين في كل مكان. السجن في كل مكان . . أنا سجين لاني معك . . محكوم علي بك . . محكوم علي بإحساس أنني سجين.
ـ ولكنك سوف ترى الناس في المدينة، سوف تتفرج على حريتهم، ويتفرجون عليك مثلهم حرا . .
ـ أنا خارج الناس، خارج حريتهم، أنا سجين حتى إذا لم أكن داخل زنزانة . .

والتفت إليه السجان وقال بهدوء إنسان عرف كثيرا:

ـ اسمع، هل تريد أن تعرف الحقيقة، أنت سجين دائما حتى إذا لم يحكم عليك بالمؤبد . . أنت سجين داخل نفسك، وعندما لاتنبع الحرية في أنفسنا ومنها، فإن السجن سوف يكون لنا في كل مكان . . في وطن الحرية يكون السجن إذا لم تكن حريتنا تنبع منا،

الحـرية لا يصنعهـا المكان، لايصنعها الآخرون.. القاضي وأنا والقـانون.. الحرية تصنعها أنت.. هل تفهمني، إنني أحببتك غريبا في سجن المدينة، أحببتك إنسانا ألقي في مصير غير مصيره. وأنا آسف لان أفارقك هنا.. في هذا السجن الآخر..

وعاد الصمت يلفهما والسيارة الكبيرة تنزل الطريق الجبلي إلى المدينة، وفكر السجين انه يحب هذا السجان، لقد أفاق إلى هذا الحب في هذه اللحظة، ونزلت من عينيه دمعة صغيرة أحس فيها، في عاطفة الحب التي ولدت فجأة.. أنه حر بشكل ما..

الأصباغ

سوف تذهب معنا الى «المدينة الفاضلة»! التفت يطل داخل أعينهم، كان يرى هناك النظرة الساخرة نفسها، وقال :

ـ كلما جاء الربيع تفتحت قلوب الناس، وأنتم تفتحون للربيع كل شيء إلا قلوبكم.

علق صديق :

ـ دع عنك هذا الكلام، لقد استمعنا اليوم الى محاضرات بما فيه الكفاية، قل.. هل تذهب.. أو لاتذهب؟

انطلق صديق ثالث :

ـ نحن الآن في الخريف.. أرجو أن تذكر هذا.

أطل من النافذة على السفح البعيد، وقال:

ـ سوف أذهب معكم .

تحرك صديق آخر حتى اقترب منه ، قال:

نحن أيضا نكره ذلك، إننا مثلك تماما، يهمنا أن نلتقي التذاذا مزدوجا.. يغني فيه التعاطف عن الفلوس، ولكن ذلك لن يحدث مع زميلة في الجامعة الآن، ولن يحدث قبل أن نتزوج.. هذا إذا لم يصدمنا واقع الزواج أيضا.. وبعد ذلك كله، لاتنس أن المدينة صغيرة، قاتمة، وليس لنا مانفعله فيها غير هذا..

دائما يتحدثون له عن المدينة الصغيرة القاتمة.. وهو وحده

لايراها صغيرة ولا قاتمة، إنه يفرح بها دائما، وكلما سافر، وكلما عاد، أطل عليها من داخل القطار بفرح :

«هـذه مدينتي»، إنه لا يحس فيها الاغتراب أبدا، لقد التقى مدنا كثيرة في سفراته، وكانت بعضها أجمل، وبعضها أكبر، ولكنه كان يحس في كل مكـان بالضيق حتى يعـود. . ان القتـامـة في روحهم. . انهم لن يحبوا أية مدينة أخرى، أي شيء آخر. .

كانوا يقتربون من أضواء «المدينة الفاضلة» . . مجتمع القذارة كما يسميه، وهناك يلتقي مرة أخرى بهن، وبالاصباغ، الاصباغ تملأ وجوههن، تملأ قلوبهن، تملأ ضحكاتهن«لقد فقدوا انسانيتهن أيضـا على فراش قذر»وكـان يكـره فتيات القـذارة، حيث ماتت عواطفهن، ماتت قلوبهن، ماتت كل إنسانيتهن، وانغلقت فيهن كل النوافذ التي يمكن أن تشرق منها شمس ولم يعدن صالحات لشيء. .

ـ هه. . لاتفكر أكثر، لقد وصلنا. .

دخلوا جميعا، الاصباغ، ضحكاتهن وأصباغهن تملأ المكان، جذبته واحدة، لم يلتفت«أنا جئت مع الاصدقاء فقط»، قال ذلك لنفسـه وهـو يواصل طريقه مع المجموعة، وقفوا أمام باب، رفع عينيه ليقرأ اسمها بالاضواء «شادية». . الملعونة شادية.

هي هي كل مرة، ومعها الاخريات. .

ـ مرحبا بالاولاد. .

«قولي مرحبا بفلوس الاولاد. . ذلك أصدق»، ردد الكلمات داخله وهو يمد لها طرفا من يده، ودخل أربعة، و بقي هو:

ـ ألن تدخل؟

رفع إليها عينيه . . الاصباغ تملأ وجهها، وقال:
ـ لا . .

قدمت له كرسيا، بعد أن جلس، قالت:
ـ هل عندك سيجارة؟
ـ لاأدخن . .
ـ هل أنت زميل لهم في الجامعة؟
ـ نعم
ـ الله يعينكم

التفت إليها مذعورا، ليس هذا المكان صالحا لذكر الله، إنها تفعل ذلك، تذكر اسمه وسط الاصباغ والقذارة، إذا بقي لحظة أخرى فسوف يسقط البيت فوقه، كانت نظراته قاسية وهو يفكر، أخرجت سيجارة من صدرها، مدت له واحدة . .
ـ لاأدخن . .

أشعلت سيجارتها، وراحت تدندن بأغنية ساقطة، وماذا تنتظر منهن غير ذلك؟ الاصباغ والاغاني الساقطة . . وهذه الرائحة القذرة التي تفوح من المكان كله . .

أخرجته من التفكير :
ـ أنا أيضا كنت أقرأ؟
ـ . . . .
ـ كان أبي امام مسجد وكنت أقرأ . . لقد مات منذ عشر سنوات، وتركت الدراسة، كنت وقتها في السادسة عشرة من عمري .
ـ مات؟
ـ نعم منذ عشر سنوات

ـ كان إمام مسجد؟
ـ نعم

وضحك، ليت أبوك يطل الآن..
ـ هل عندك أخوات؟

أحس بالحرج، رفع إليها عينيه، واكتفى بأن هز رأسه علامة الايجاب..
ـ كنت أتمنى لو كان لي أخ
ـ لم يكن لك أخ؟
ـ لا، ومات أبي.. مكتاب، كل شيء مكتاب..

أحس بالارتياح نحوها، رفع إليها عينيه، كانت تفكر، كان الحزن يَرتسم فوق جبهتها، وقالت:
ـ ليس إسمي شادية.. أنا إسمي فاطمة، كان أبي يقول إنه اختار هذا الإسم لي لأن ابنة النبي كان اسمها «فاطمة».. فوجيء، أخته أيضا اسمها فاطمة، ضحك مرة أخرى، وترك نظراته تسبح فوق وجهها المصبوغ..
ـ الله كتب علينا هذا.. لو لم يكن راض لنا به لخرب هذا المكان في لحظة.

نعم، لاشك أن الله لو لم يكن راضيا لخرب هذا المكان. كيف يمكن أن يعلل رضاء الله؟
ـ لاتريد أن تدخل؟
ـ لا..
ـ لماذا؟
ـ في الحقيقة ليس معي فلوس..!

كانت أقرب كذبة إلى فمه، وقامت من كرسيها، مدت يدها:
ـ تعال ندخل.. لن آخذ منك فلوس.

* * *

عندما خرج إلى الشارع، كان يفكر انه سيعود إلى هذا المكان وسيعود وسيظل يعود، كان رأسه يدق بعنف، كان يحس الضيق، وأن المدينة صغيرة وقاتمة، وأنه وحده لم يكن يعرف ذلك، ورفع عينيه ببعض الدموع إلى السماء، وهمس من بين أسنانه:
ـ هل لك عيون. هل أنت عمياء لاترين؟؟

كانت السحب الخريفية وحدها.. تطل في السماء.

میلاد

في البيت ثلاث غرف . .

إن هذا يحدث مشكلة كل سنة، مثلما يحدث الآن تماما، وقد تجمعت النسوة بواحدة من هذه الغرف حول السرير، ينتظرن ساعة الخلاص . .

ان مولودا جديدا إذن ينتظر، هناك في تلك الغرفة الصغيرة حيث تجمعت النسوة، وحيث تعلو من حين لآخر صرخة طويلة المدى . .

كان الرجل العجوز، جد الطفل المنتظر، يرقد في غرفة ثانية من البيت، مريضا منذ زمن طويل، وقد تجمع حوله هو الآخر أربعة من الاطفال الصغار . .

تساءل عمر بحيرة: ماذا بأمه؟

كان الرجل العجوز يتحدث الى الاطفال: تلك بداية آلام الامهات من أجلنا .

كان يحب أحفاده الصغار، كان يرفض أن يبكي أي واحد منهم مهما كان السبب، وكان الى ذلك، يرفض أن تعمل زوجة ابنه أي عمل يمنعها أن تحمل من جديد . .

ـ الاطفال . . جنة الحياة الدنيا، والله الذي يرزق النملة التي لانراها نحن، كفيل أن يرزق عباده جميعا، مزيدا من الاطفال . .

كان يحس في أعماقه ارتباطا وثيقا بهؤلاء الصغار، كان يعرف بشكل غير واضح تماما، أنهم استمرار له هو. .

إن الحياة، التي تتسلل منه ببطء، هي نفسها التي تجعله يقاوم انتهاءه دون أن يخلف ذكرى . .

وتساءل حفيده الاكبر: إذا كان ولدا . . ماذا نسميه؟

كانت الصرخة طويلة المدى قد انطلقت من الغرفة الصغيرة، وكان الرجل العجوز يتحدث بصوته الضعيف: «الالم طريقنا إلى الحياة، ونحن نتحمل الالم من أجل الحياة كلما كان ذلك ضروريا، لقد حضرت ميلادكم جميعا، كانت أمكم تصيح في الغرفة الاخرى كما تصيح الآن، لم يتغير شيء، بهذه الصرخات كنتم تعلنون قرب مجيئكم. كم تسببون من الالم للذين يحبونكم، وهاأنتم الآن مخلوقات كاملة، تفهم وتتحدث وتحيا، ودوركم يقترب أنتم أيضا لتصبح لحيواتكم ارتباطات بالآخرين . .

إننا نتألم للآخرين، تلك بداية معايشتنا للحياة. . الآخرون! إنني في الثمانين من عمري، هل تعرفون معنى ذلك، معناه أنني رأيت كثيرا، في العشرين كنت أضرب الارض بقدمي، كنت أقفزثلاث درجات السلم مرة واحدة، وأنا الآن لاأستطيع أن أخطو خطوة واحدة. . هل تفهمون؟».

انطلقت الصرخات دون أن تتوقف، الزائر الجديد قريب من الارض، والنساء يرددن أدعيتهن القديمة المعروفة، وعمر الصغير يهرب إلى غرفة أمه حائرا من كل هذا الالم الذي يجعلها تصرخ هكذا، والرجل العجوز يضع يده على قلبه، لقد عاودته الازمة مرة ثالثة هذا الصباح، هو أيضا يفكر أنه كان صغيرا، كانت أمه تصيح

به هكـذا قبل أن يطل على الدنيا، متى كان ذلك، وكيف؟ إنه لايمكن أن يذكر، إنه يستطيع أن يجهد نفسه ليفكر فقط، إننا نأتي بالصراخ، ونخلق الحياة كلما كنا صبيانا، وفي الثمانين، كما الآن، لايوجـد غير الصمت، لايحفـل بنـا أحد بعد، حتى الحياة تجد لنفسهـا آخـرين جددا تنشغـل بهم، كأنـما نحن أنهينـا دورنا في المسرحية. . حتى قبـل أن يسـدل الستار نكون قد أنهينا دورنا، الحياة جميلة ولكنها قاسية نوعا ما، لقد أعطيتها دوري كاملا . . عمـري الطويل، أنا أرقد ببلاهة دون أن ينتظر مني أحد شيئا، حتى الاطفال الصغار راحوا الى أمهم يتفرجون على ألم البداية، ذلك الالم العذب . . ألم البداية.

كان الصراخ في الغرفة الاخرى يخفت، وكانت النسوة يرددن الادعية، وبدا أن كل سيء يقترب من نهايته، صرخة طويلة، ثم صياح المولود الجديد، وابتسامة هائلة ترتسم على محيا الام، وامرأة تردد:

ـ ولد، إنه يشبه جده. والطفل الاكبر يسرع إلى الغرفة حيث يرقد جده.

ـ جدي. . جدي. . إنه يشبهك.

كانت زغردة قد بدأت في الغرفة الاخرى
وكان صراخ الوليد يملأ البيت. .
وكان جده لا يجيب. .

الفرار

بدأت تعي، فتحت عينيها ببطء، على نور خافت يطل من ثنايا النافذة، ومن غير أن تلتفت، أحسته إلى جانبها، وفي لحظة واحدة تذكرت كل شيء، وقفزت من السرير بحركة لاإرادية، لكن صوته أتاها عبر الظلمة:

ـ فاطمة..

صوته هادىء عميق واثق..

قالت:

ـ ألم تنم؟

ـ كنت أحرسك وأنت نائمة.

ـ تحرسني. ممن؟

ـ منهم، كنت أخشى إذا نمت واستيقظت أن أجدهم قد أخذوك مني..

أحست بعض الراحة، واقتربت منه، وفي خاطرها يدور سؤال

ـ هل اغتصبتني؟

ضحك، وبدت لها ضحكته في الغرفة المظلمة كأنها اعتراف، لكن صوته الهادىء العميق عاد يزرع في داخلها الراحة:

ـ الانسان لايسرق نفسه

شيء ما يقول لها انه صادق، شيء لاتفهمه، لكنها تحسه مع دلك . .

وعادت إلى جانبه، طفلة صغيرة كبرت قبل الأوان وكان البحر يهدر في الخارج، وكان النور الخافت يتسع مداه، وبدأت تتحسس نفسها، مدت يدها الى صدرها العاري تحت قميص النوم، إنه يحبه هكذا بلا قيود، صدرها الصغير الذي يدفأ بين كفيه، وفجأة، سألته:

ـ لو كانت لنا طفلة، ماذا نسميها؟

ـ سمراء، ولكنها لن تكون . .

وتكومت في صدره، وهي تتحسس في داخلها طعم حريق . .

لقد مضى السبت كله، طار كعقربي ساعة حمقاء، وهاهي حرة. والآخرون غائبون، منفيون بعيدا. البحر وحده يهدر منذ أمس، فماذا فعلت بحريتها؟ لقد اختفت هنا داخل جدران خشبية، اختفيا هنا ليعيشا الحرية، لكنها كانت وهما . . الحرية:

ـ لماذا أنت عاقل . . أحمق مرة واحدة، العقل يسجن الحرية . .

تمتد يداه إليها، إلى شعرها، إلى وجهها، إلى صدرها . . والبحر في الخارج يهدر، والظلام انهزم، لكن جدران الخشب مازالت تحجب النور. لقد جاء يوم الاحد. وهذا هو كل ما تستطيع أن تفعل بحريتها، أن تهربها خارج المدينة، خارج الاعين. ومع ذلك فهما محاصران هنا بالمذينة البعيدة، بالاعين، بالآخرين، بزوجته وأبنا ئه وانتماءاته ومركزه الاجتماعي . .

ـ الرجال قديما كانوا يتزوجون أربع زوجات . .

ـ أما اليوم، فهم يتزوجون واحدة فقط، ومع ذلك يهربون

ـ منها. (وكان يضحك)، ولو تزوجتك أنت، لهربت منك.
ـ لكنك تريد أن تبقى معي، ثق أنني سأظل مشتعلة، ولن أنطفىء أبدا، ولن تظمأ ولن ترتوي معي أبدا، هذا ماتريد..
ـ إنني لاأريد شيئا.. أنا معك الآن، وهذا يكفي...
ـ الآن.. لكنه سيمضي، وسنعود إلى المدينة، وسنفترق عند بابها، وستراني في الطريق وتغمض عينيك، وسأنتظرك على الهاتف مرتين كل يوم، إننا نسرق سعادتنا..
ـ لأننا حين لانسرقها نفقدها..
ـ ولكن ذلك لن يطول.. سيأتي إنسان يطلبني من أبي، وسأذهب إلى بيته، وستحسبني مت كما تقول.. ولن تفكر في مرة ثانية..
ـ ستكونين معي دائما..
ـ لأنني أحبك فأنا أصدقك.. وسأظل أحبك، لكنني لن أصدقك دائما..

وكان البحر يهدر.. والساعة الحمقاء تقتل صباح الأحد، وسيفترقان أخيرا، وسيدخلان المدينة الملعونة ليتركها تضيع على بابها، وهاهي الحرية تبدو بلا طعم.
ـ هل أفتح النافذة..

انزعج، أحست به وهي ملتصقة به.
ـ لا.. إن الناس يمرون من هنا أيضا..
مركزه، وزوجته، وأولاده، وانتماءاته: ان الناس يراقبونه، وهو لن يفقأ أعينهم جميعا، كل المدينة تراقبه.

ولفهما بعض الصمت، بالامس ضمها إلى صدره كثيرا، قبلها كثيرا، همس لها: لو تستمر الحياة هكذا.. من غير توقف، من غير أن يكون علينا أن نعود إلى المدينة.

اهتز الصمت حين بدا لهما أن أحدا وراء الباب، ابتعدت عنه، ابتعد عنها، تسمرت أعينهما على الباب، هناك أحد وراء الجدار الخشبي، نظرت إليه، التقت عيناهما، اقتربت منه، ضمها إلى صدره، لقد جاءوا لأنه هرب منهم، كان عليه أن يواجه عيونهم داخل المدينة، أنْ يهدمها فوقهم، أن يقول لهم: ان وجهي، ليس هو الذي ترون.. وليس هو الذي تعرفون..

وكانت ملتصقة به، لم تكن خائفة إلا من أجله، عيناها في عينيه، كانتا تقولان: والآن.. لقد جاءوا، ووراء الباب تستمر الحركة، والبحر يهدر ما يزال، في هذه اللحظة سيتوقف الزمن، السبت والاحد والعقربان المجنون، وأحست به وهو يحتضنها أنه يريد أن يحميها و.. وفي الخارج ماءت قطة، وأطلق قط مواء التذاذ رجولي، ونبح كلب، وضحكا معا: لم يكن أحد وراء الباب.. وقفز عاريا إلى النافذة، فتحها، ودخل النور قويا.

ـ إنني أحتقر المدينة..

قالها بإصرار فاجأها

ـ سوف أقول لهم انني أحببتك.. وسوف أشهر سيفي في الشارع الرئيسي

ـ سيأخذوني منك..

ـ لن يستطيعوا.. سأحاربهم

وعاد إلى جانبها، غرقا معا في السرير، وكان البحر يهدر، وفي تلك اللحظة، قبل أن يغيب، قال لها:

ـ الزلزال أفنى المدينة.. حين نعود لن نجدها.

والشمس تشرق دائما

أشرق الصباح على المدينة، أشرق على الدار الخراب أيضا، فالله عادل، وهو يعطي الشمس بالمجان لكل الناس..

وتحرك فأر صغير وسط الاحجار، وانفتح الباب الهرم ليطل منه وجه أسمر.. عيناه غائرتان، كل صباح يفتح هذا الباب ويطل الوجه الاسمر على الدرب ثم يقفل الباب وتتحرك القدمان الطويلتان تضربان الرصيف برتابة، وترنو العينان بحزن إلى الفيران التي تبدو من وراء الشقوق.

وتمتم الرجل لنفسه:

ـ هذا اليوم .. سوف يأكلون الخبز..

وابتسم بمرارة

«لماذا تنطبع المرارة على ابتساماتي دائما؟»

ولم يجب، فقد كان جائعا، وكان يفكر انه منذ ثلاثة أيام تمتم نفس الكلام: «هذا اليوم . سوف يأكلون الخبز». ولكنهم لم يأكلوا الخبز بعد، وقد ملوا جميعا من نبات «البقولة» مخلوطا بالماء، فقط.. كما لو أن الله خلق الماء من أجلهم حتى يخلطونه بالبقولة.

وأومأ برأسه لواحد من جيرانه في الدرب، ثم عاد يتساءل: هو أيضا زوجته حامل..

ابتسم هذه المرة دون أن يحس طعم المرارة، وردد في سخرية:

ـ إننا أبدا نغطي فشلنا في إيجاد عمل بايجاد مزيد من الاطفال.. ذلك لايكلفنا تعبا.. ولا حتى رسالة طلب كما نفعل مع الادارات.. نحن لانترفق بأنفسنا ولانعذرها، وإنتاج الأطفال على كل حال خير من العقم.

وتسمرت قدماه على الأرض، والتفت إلى الوراء ثم التقط بقايا السيجارة من الأرض، ومد يده ليخرج عود ثقاب مهمل في جيبه الايمن.

كان لايدخن حتى يفطر، كان ذلك تقليدا لامبرر له، حينما كان يشتغل صانعا.. أجمل «بلغة» في السوق من فيض يديه.. «بلغة مدفونة» كانوا يسمونها، أما اليوم فلا يلبسها أحد بعد، وإذا لبسها بعض من الشباب فليجتذب إليه الانظار ويسخر قليلا مع أصدقائه. موضوع لابأس به للتسلية.. البلغة المدفونة.. والجلباب البزيوي.. والمهم أنه اعتاد أن يدخن أعقاب السجائر قبل أن يفطر..

كان قد ترك الدرب وراءه ووصل بداية الشارع، تعلقت عيناه بفتاة صغيرة تلبس فستانا ضيقا، وفي رجليها حذاء بالكعب العالي..

«إنها موظفة.. تأخذ الفلوس كل شهر لتشتري مزيدا من الاحذية بالكعب العالي. رحم الله «الحايك».. وألف رحمة للريحية، لو كنت متزوجا واحدة من هذا النوع لطلقتني منذ أيام البطالة الاولى، أو لعلها كانت تكفيني مشقة «البقولة» كل يوم اقتطعها من الغابة، هذا إذا كانت تحبني.. ولنفرض سلفا أن

حكاية الحب التي يقولون عنها «صحيحة».

وسار خطوات أخرى، وتخلى عن الفتاة الصغيرة يحدق في لباسها الضيق وهو يبرز بوقاحة كثيرا من ثنيات ومخارج ظهرها.. ثم عاد إلى نفسه. «الموضوع الآن.. هل يأكل الاطفال خبزا هذا اليوم؟»

وأخذ يفكر بجد..

ليأكل الاطفال الخبز، كان يجب أن أكون واحدا من عباد الله الذين وجدوا عملا..

وإذن، وفي مثل هذه الحالة وجب أن أسرق الخبز ليأكله الاطفال. وقد كان ممكنا أن يسرق الانسان في الايام الخوالي، أما اليوم فقد تغير الناس وأصبح كل منهم يحترس أكثر من اللازم.. مساكين هؤلاء اللصوص. لم تبق لهم ثغرة من «بركة» الناس القدامى ومن «طيبتهم» يسرقون منها..

وبصق على الارض، كان عقب السيجارة انتهى وهو مايزال في الدرب، ولكنه خلف على شفتيه شعرة، وبصق مرة ثانية، ثم عاد يفكر:

ـ «ناس عندهم الخبز وليست عندهم شهية، وناس عندهم الشهية وليس عندهم الخبز. حكاية الفول لمن لاأسنان له، فلتكن إرادة الله في النهاية»

ولكن الاطفال يريدون الخبز، والخبز لاينزل من السماء ولكنه يطلع من الارض.. والاطفال علة الخبز كما يقولون.. وأنا.. أنا علتهم معا.. الخبز والاطفال..»

وعادت قدماه تتسمران بالارض.. وومضت في عينيه الاشراقة الاولى للصباح «وجدتها..»

لقد كان هناك مكتب يشتري الدم، كان يعرفه في أحد شوارع المدينة وعليه أن يبحث عن هذا المكان الآن.. وسوف يأكل الاطفال الخبز..

وعرفت قدماه هدفا بعد أن ظلتا أياما طويلة تتحركان بلا هدف، ومضى يبحث عن مكان يبيع فيه الناس بعضا من دمهم، وردد بسخرية:

«وللخبز باب، بكل يد مضرجة تدق» كان يعرف مثل هذا الكلام، فلطالما تغنى به وهو بعد يخيط «البلغة».. وقد فهمه الآن فقط و.. «من هذا الشارع مكتب شراء الدم».. وأسرعت خطواته، كان قد وجد الخبز للاطفال، وبعض من الدم لايضير إذا هو نقص من جسمه.. «ولتكن إرادة الله»..

ووقف أمام الباب يتهجى: نصف لتر ثمنه 5 دراهم: «الملاعين.. انهم يبيعون قطرة من الدم بالملايين، صحيح أن الفرق كبير بين أن تعرض شيئا للبيع وأن تطلبه للشراء.. فليكن

ودخل.. كان المكان صامتا، والشاوش الوحيد مازال ينفض عنه النعاس، ولكن ذلك لم يمنعه أن يقف في وجهه.

ـ ماذا؟

ـ أريد أن أبيعهم دمي..

وأخذه الشاوش إلى مكتب صغير، ودق الباب بهوادة، ثم فتحه ودعاه لأن يدخل.. وقال له الرجل الذي يرتدي سترة بيضاء: اغمض عينيك.. عر ذراعك.. إنك لن تحس أي ألم إطلاقا..

وعندما كان خارجا يدعك بين يديه الدراهم، كان يرى أن

العملية تمت دون ألم حقا. . وفي الباب فكر أنه سيعود مرة أخرى إذا مااحتاج أطفاله الصغار إلى الخبز. . ولكنه تهاوى فجأة قبل أن يفكر في شيء آخر. . وتفتحت يده اليمنى لتسقط منها الدراهم، وجرى الشاوش إلى الباب بعد أن سمع ارتطام الجسم الطويل بالارض. . وردد بلا حزن:

ـ واحد آخر. .

* * *

وطالت غيبة الرجل الاسمر وراء باب البيت الخراب. . ومازال الصباح يشرق كل يوم على المدينة. . وعلى البيت الخراب أيضا، فالله عادل، يعطي الشمس بالمجان لكل الناس. .

الزلزال

الزقاق بارد وصامت، غير شخير يعلو من جسد ينام في جانب منه، وقد وضع تحت رأسه حجرا كبيرا، لفه بمجموعة من الورق، وراحت الاجساد الاخرى، التي تنام على الارض تتحرك في ضيق، ثم مالبثت أن تعودت الشخير، فهدأت، وأصبحت في مجموعها تؤلف جوقة(للشخير).

وغير بعيد من هذه الاجساد كانت قطة صغيرة تموء، وهي تتمسح بعتبة إحدى الابواب، وكانت فراشة تطوف حول مصباح معلق في الزقاق، وهي تحلم أن تحترق.

كان كل شيء في الزقاق صامتا، ففي ليالي ديسمبر الباردة، يحلو للناس أن يلتفو باكرا حول المدفأة ليحلموا بالغد الجميل.

كان كل شيء يسير برتابة كل أيام ديسمبر الاخرى، الزقاق فارغ وصامت وبارد، وأجساد (الدراويش)تنام في جانب منه، والقطة تتمسح بالعتبة وتموء، والفراشة تحلم أن تحترق. ونبح كلب ليبدد كل هذا الصمت، ثم فتح باب على عجل، وخرج منه رجل وامرأة وبضعة أطفال يبكون، وفتح باب آخر، ثم باب آخر، ثم فتحت كل الابواب في الزقاق، وخرج كل السكان، بعضهم يجري وهو يحمل في يده غطاء، وطفلا مايزال في شهره الاول، وبعض آخر منهم كان يرتدي منامته فقط، والنساء شبه عاريات، ومجموعة

ن الاطفال يصيحون وهم يجرورن وراء آبائهم بعيدا عن الزقاق. ان كل ذلك شيئا جديدا، وكان غريبا أيضا، فقد فتحت الابواب لمهـا، وهـرب كل السكـان بعيدا، ورفع أحد الدراويش رأسه متثاقل من وسادة الحجر، وسأل الهاربين:

ـ مالكم؟

ـ الزلزال؟. تعال تهرب.. ألم تحسوا باهتزاز الارض؟

وعندما أتاه الرد، أنزل رأسه من جديد على الحجر ببطء، وعلا شخيره ليؤلف مع شخير الآخرين جوقة.

ثم عاد الزقاق باردا صامتا، غير أبواب عتيقة تئن عندما يدفعها ريح ديسمبر، ومن بعيد كانت الاصوات المختلطة تتحدث وتبكي.

ومرت اللحظات بطيئة، فأصبحت بعد فترة طويلة ساعة فقط، ثم ساعـة وبضـع دقـائق، ومـايزال ماكـان كما كان، الـزقـاق والـدراويش، والـريح التي تدفع الابواب المفتوحة، وأخيرا مرت ساعتـان، وعلت أصوات أقدام تقترب من الزقاق، رجال ونساء وأطفال، وكانوا يتحدثون جميعا مرة واحدة، فلا يسمع من كلامهم كله غير (الزلزال)وعندما اقتربوا من أجساد الدراويش رفع درويش رأسه وتساءل:

ـ ماذا؟

وعندما لم يأته الرد، وضع رأسه من جديد على وسادة الحجر، وعـلا شخـيره، وأخـذت الابواب تقفل، واحدة، وواحدة، ثم أقفلت جميع الابواب.

وعاد الزقاق باردا وصامتا.

القـطة الصغـيرة دخلت إحـدى هذه الابـواب عنـدما فتحها أصحـابهـا ليهـربـوامن الزلزال والفراشة التي كانت تطوف حول المصباح المعلق وتحلم أن تحترق. (احترقت).

* * *

الزقاق صامت، وفي جانب منه يعلو شخير (الدراويش)..

في منتصف الليل

الـذبـابـة تضـايقك. . تدفعها عنك فتعود إليك، تقف على خدك، تقف على أنفك، تقف على رموشك، وتنفضها عنك فتعود إليك، تقرر أخيرا أن تقتلها. .

تضايقك دقات الساعة: تك. . تك. . تك.

الليل يولـد الصمت، وفي الصمت تصبـح تكتكات الساعة أفـاعي تتلوى في فراشـك، تـدخـل رأسك تحت الوسادة، لكن تكتكات الساعة تقوى. . وتمنعك من النوم، لن تنام إذا لم يولد الصمت كاملا، فترمي عنك الغطاء لتلتقط الساعة، وتذهب إلى المطبخ، وتقفله عليها. .

طق. . طق. . طق.

الخادمة لم تغلق صنبور الماء جيدا، القطرات تنكسر على الارض الصلبة، قطرات واثقة، رتيبة لاتنقطع: طق. . طق. . طق.

مرة أخـرى ترمي عنـك الغـطاء، وتـذهب إلى المطبخ لتغلق الصنبور جيدا. .

تعود سيلف صمت الليل دنيا البيت، وستنام بعمق. . وعلى السرير إلى جوارك يمتد الجسد الآخر، مرت عشرون سنة، وهذا

الجسد يمتد إلى جوارك كل ليلة، حتى ما عدت تحس به. تقتل النور، وتتمدد، تدفع الجسد قليلا ليفسح لك مكانا على السرير، وتجتذب منه بعض الغطاء. وتنتظر أن يسود الصمت، وأن تنام بعمق، لكن الانفاس الرتيبة إلى جوارك تقتل الصمت، إنها ليست في هذه الدنيا، لاتحس بك، لقد ماتت، وهاهي أنفاسها الرتيبة العميقة تقتل الصمت، عشرون سنة يمتد إلى جوارك هذا الجسم، وأنت لاتتحرر منه أبدا، الذبابة تقتلها حين تضايقك، الساعة تبعدها، الانبوب تقفله بإحكام، لكن هذا الجسد الممتد إلى جوارك هو الذي يضايقك، اعترف بذلك الآن. تأخرت سنوات كثيرة عن اكتشاف هذه الحقيقة، هذا الجسد الذي يرقد إلى جوارك هو لعنتك. فقدت طعم الاشياء، وماعدت تميز الالوان، أنت غريق منذ عشرين سنة ولاتعرف، أنت فطمت قلبك قبل وقته، جمدت خفقاته، وأنت تتضايق من غير أن تعرف سببا واضحا، منزعج باستمرار، محكوم عليك، بالنظرة الفارغة من كل بريق..

اعترف الآن، هذا الجسد الذي يمتد على سريرك هو سر كل شيء، لقد أفقدك طعم الحب. لقد أغرقك في دنياه الضيقة.

قتلت الذبابة..

قتلت الساعة..

قتلت قطرات الماء..

هذا الجسد هو كل هذه الاشياء، ارم الغطاء عنك الآن، السكين قريب منك، في المطبخ، هناك حيث وضعت الساعة، اقتل قرفك مرة واحدة، اقتل كل مايضايقك، وانطلق، وليكن في عينيك بريقهما.. اقتله.. اقتله قبل أن يأتي الصباح.. والجسد

يقترب منك، تمتد إليك ذراعان كأخطبوط، تحس دفئه يحاصرك، الصدر الممتلىء يلتصق بك، العرق الساخن يختلط بجسمك كله..

لابأس.. فلتؤجل مشروع الجريمة إلى يوم آخر. الجسد الآن دافىء

العربة

حين يضحك ذلك الصباح، كانت أسنانه تبدو أكثر سنوادا. وكانت غضون جبهته تضيق أكثر، إنه انتصر الآن. وسيقود العربة بنفسه، ولن تكلفه تعبا، فالحمار سيجرها من السوق إلى أي مكان، وسيحمل عليها بضاعة زائدة، الحمار أقوى، وهو لن يحتج أبدا.

منذ ذلك الصباح تقول له فاطمة «ابحث عن عمل آخر، ابحث عن عربة تجر عليها البضاعة.. ابحث».

(مضى الآن أسبوع طويل منذ ذلك الصباح، وأنا لاأبحث، لن أبحث أبدا، لقد تعبت طويلا، وقد أعطيت لي الفرصة لأرتاح قليلا، ولأفكر قليلا، فحين كانت العربة بلا حمار، كنت أجرها كل يوم من السوق إلى أية جهة من القرية، وكنت أفعل ذلك مرات في اليوم، حتى إذا جاء الليل دخلت الكوخ متعبا لاغرق في نوم طويل لاأحس خلاله بصراخ الاطفال، ولا بالجسم الحار الذي يلتصق بي، يحاول أن يجعلني أفيق قليلا..)

الآن، العربة يجرها حمار.

(كان العرق يتفصد من كل جسمي وأنا أجرها في العقبة المواجهة للسوق، ولم أكن حينئذ أقف لارتاح، ولم أكن أقف

لافكر. كان«مولاي الحاج» يراقبني، فالعربة عربته، ولكنه شاخ كثيرا، وأصبح عاجزا عن جرها).

أما الآن، فالحمار يجر العربة، و«مولاي الحاج» يسير وراءه بهدوء، في يده سوط، من غير أن يتعب أو يعرق. والحمار لايحتج، وهو أقوى، يستطيع أن يحمل أثقالا زائدة.

(لو فكرت من قبل، لاشتريت العربة كلها. لقد كان ممكنا أن أبيع «الدمليج»، وبعض الاثاث، وماكان «الحاج» يستطيع أن يمانع. فهو قد شاخ كثيرا، وعجز عن جر العربة، فلم لايبيعها إذن؟ لكنني لم أكن أفكر، وذهبت لأشتغل معه، أجر العربة وأعطيه سبعين في المائة من مدخول اليوم، كانت حماقة كبيرة، وكنت آخذ الأجرة لأصرفها يوما بيوم، أما هو فكان ذكيا، وخلال سنتين استطاع أن يجمع بعض المال، وأن يشتري حمارا للعربة، وأن يقف في وجهي منتصرا، فالعربة أخيرا ستعود إليه. حين كان يضحك وهو يلقي النبأ، كانت أسنانه أكثر سوادا، كأنني أراها لأول مرة، وكانت غضون جبهته تضيق أكثر، كان يبدو كأنه شمت بي. ولاشك أن سحابة حزن كانت تخيم على وجهي وأنا ألقي النظرات الأخيرة على العربة. فقد أعلن الحاج من خلال ضحكته: «لاتبتئس، فستراها كل يوم في السوق».

كنت أسير بها مسافات طويلة، وفي صمت الطريق كانت عجلاتها الحديدية تطحن الحصى، وتنبعث منها أنة طويلة، كنت أحسبها أحيانا ساقية، وحين كان الماء يفيض مني بغزارة أيام الصيف، كنت أكاد أعتقد أنها حقا ساقية..)

أما الآن، فالحمار هو الذي يجر العربة.

(حين أخذتها أول صباح، كانت مساميرها ناتئة، وكانت عجلاتها تتحرك بتثاقل كبير، كان ذلك في صباح دافىء من مارس، وتعبت معها في أيامي الأولى، ثم صببت عليها الزيت، وتعودت يداي على مقبضيها الخشبيين، وطرقت كل مساميرها الناتئة، وأصبحت أجمل عربة في كل القرية.

لم تكن تتعبني إلا في العقبة، فهناك كان علي أن أبذل مجهودا أكبر لنحتفظ بتوازننا، وكانت تبدو طيعة أكثر، كأنها تريد أن ننتهي سريعا من عقبة السوق، لننحدر أخيرا بسهولة نحو القرية التي تبدو من بعيد غارقة في الصمت).

الآن العربة يجرها حمار. وفاطمة تدفعه ليبحث عن عمل، أو ليجد عربة أخرى..

(كان لونها باهتا حين أخذتها أول صباح، وبعد شهر واحد صبغتها بالاخضر، وبدت جميلة في لونها الجديد، حتى «مولاي الحاج» لم يعرفها سريعا. أما الآن، فهو يقول أنها عربته، وقد أزالها مني ببساطة حين اشترى ذلك الحمار، وربط الحمار بالعربة أمام عيني، ثم مضى بها وتركني وحيدا أحدق فيها وهي تبتعد، وتطحن الحصى، وتطلق أنات حزينة.

هل أترك الامر يستمر هكذا؟ هل أبحث عن عربة أخرى، عن مقبضين خشبيين جديدين، وأمامي تمر العربة الخضراء كل ساعات النهار يجرها الحمار؟)

كان يبدو أنه انتهى من التفكير أخيرا، لقد مر أسبوع منذ انتزعت منه العربة، وقد ظل طيلة الاسبوع لايفعل شيئا غير أن يفكر، وحين كان ينام، فقد كانت أحلامه تمتلىء بالعربات تملأ

ساحة القرية كلها، وساحة السوق، لكنه كان دائما يبحث بعينيه عن عربة خضراء..

وفي إحدى ليالي الاسبوع، أفاق من نومه مبللا بعرق غزير، لقد كان يحلم أنه يجر العربة..

(كيف إذن تريد فاطمة أن أتركه ينتزعها.. وأن أبحث عن عمل آخر؟)

كانت عيناه تعلنان أخيرا أنه فكر في شيء، كان يطل وراء نظراته تصميم هائل، ونهض من قعدته المسترخية بقوة مفاجئة أفزعت فاطمة، ثم فتح صندوقا خشبيا قديما، وأخرج منه شاقورا..

ارتاعت فاطمة، وتساءلت بقلق:

ـ لماذا الشاقور؟

ـ لاتخافي.. إنني سأقتل الحمار هذه الليلة.

حكاية حزينة

المدينة تكبر وتمتلىء بالناس، وتمتلىء بالمصانع وبالدخان والدروب، وهو في كل ذلك يقف متفرجا، تسحقه غربة مريرة، فلا يحس أبدا أنه واحد من الناس الذين يملأون المدينة، أو يفعلون شيئا في الحياة، إنه مجرد واحد، تستطيع المدينة أن تظل ممتلئة حتى إذا ذهب، تستطيع الحياة أن تظل قائمة عندما تنتهي حياته هو.

كانت كتفاه ترتطمان كل يوم بعشرات الأكتاف في الشارع، وكانت عيناه تقعان على كثير من الوجوه، ولكنه لايعرف أحدا في كل هذه الوجوه، لايحييه أحد ولا يحيي أحدا، حتى اسمه ينفصل عنه فهو داخل المعمل الذي يشتغل فيه مجرد رقم من الارقام، الرقم 1431، وقبله عدد كبير من الارقام، وبعده عدد أكبر، لقد كانت المدينة عندما جاءها لأول مرة، أرضا واسعة خاوية، ينبت فيها الحشيش، ولقد كبرت أمام عينيه، قطعة قطعة. شاهد أول عمارة تطلع فيها، وأول دخان مصنع، وأول مقهى وأول حافلة نقل، ثم ضاع منه كل شيء، وهو الآن بعد عشرين سنة من وصوله إلى هذه المدينة، يحس أنه غريب، كل شيء غريب عنه، قد كانت في مكان ما مدرسة تعلم فيها وهو صبي، كانت أول مدرسة في المدينة تحيط بها الاعشاب والعقارب، وهو لايذكر الآن أين تقع تلك المدرسة

الصغيرة، لقد ضاعت كما ضاع هو وسط المدينة العاقة التي شهد ميلادها.

1431، لطالما وقف أمام المرآة يحاول أن يكون شيئا آخر غير هذا الرقم، ولكن المرآة تطالعه بوجه لايعرفه أبدا، ومن خلال دخان الفافوريت، يطلع الرقم كبيرا، 1431، ولاشيء آخر، كرقم الآلة 11 في المعمل، هما معا يفعلان نفس الشيء، والمدينة تكبر كل يوم، وتمتلىء ويختنق هو بالدخان، بالصداع، بالحافلات الكثيرة، وقد رأى أول واحدة منها، ترى أين هي اليوم الحافلة رقم 1؟

كان في الخامسة والثلاثين من عمره، لايملأ مكانا في دنيا المدينة الكبيرة، لاأهل يعرفهم، ولاأصدقاء يعرفونه، حتى المدينة التي شبت بين يديه، تتنكر له الآن، ولاتحس به في زحامه مع الناس في الشوارع وهو يتطلع إلى الوجوه، إلى العمارات والدخان والحافلات.

كل الوجوه لايعرفها، وإن كانت فيها جميعا صفات منه، فيها سمرته وعيونه المحدودبة، وشفتاه الغليظتان، وفكر، وكان يصغي إلى أغنية لعبد الحليم حافظ، تنطلق من إحدى المقاهي، لقد ولد عبد الحليم أمامي، عرفت قبله أم كلثوم عندما ابتدأت، وعبد الوهاب وعبد المطلب وليلى مراد، بعد عشرين سنة يكون عبد الحليم قديما.

ونش ذبابة عن حاجبه، ثم فكر أيضا«إنني لن أظل هكذا أشهد ميلاد المدينة والناس، ليكن ميلادي قريبا حتى أشهده، إن جميع الناس هنا مثلي، لاأعرفهم، ولايعرفونني، ولكنهم يتمنون أن

يعرفوني، كما أتمنى أنا ذلك، لسوف نصنع معا حياتنا، ولسوف نستطيع أن نكون أكثر من رقم.

وانزوى في مقهى، وكتب على ورقة بيضاء.

«هل أنت مثلي سحقتك المدينة، فلم يعد لك وجود فيها، أنا وأنت نحقق هذا الوجود، إذا اجتمعنا معا، لنكن أصدقاء إذن، وتعال إلي مساء الأحد القادم في خط الاوتوبيس(5) فسوف أظل أنتظرك هناك.

لقد عييت من الدخان والمصانع، وأنا أبحث الآن عن إنسان.. علاماتنا وردة بيضاء في يد كل واحد منا على رصيف محطة الأوتوبيس(5) سوف أنتظر هناك، أرجوك، لاتدعني أنتظر طويلا».

كان كل شيء في نفسه قد تغير بعد أن كتب هذه الكلمات، فكأنه عاد مرة واحدة إلى صباه البعيد، وإلى صبا المدينة، يوم كانت أرضا واسعة، يغطي ترابها العشب، بلا أي مصنع، ولا أي مقهى وزحام ودخان وحافلات.

ووقف أمام بائع الدخان واشترى علبة، (فافوريت) وغلاف رسالة، ثم وضع كلماته داخل الغلاف، وهو يبتسم بسذاجة، واختفت ابتسامته وهو يفكر، (ماذا لو يقرأها واحد من الناس ويسخر منه ويتركه ينتظر على رصيف المحطة رقم (5) وبيده وردة بيضاء، لسوف ينسحق أكثر لو حدث ذاك، إنه لا يريد أن يظل وحده في كل هذه المدينة الكبيرة، رقم 1431 ولاشيء آخر.

وغلبه التفاؤل، فألقى بالرسالة في صندوق جريدة.. إلى ركن التعارف.

* * *

مساء الأحد.

المدينة صاخبة، ممتلأة بالناس ككل مساء، الأضواء في كل مكان، والسيارات تمضي سريعة، والحافلات تفرغ وتمتلىء، وعلى رصيف المحطة رقم (5) وقف كثير من الناس ينتظرون الحافلة، كان بينهم شيخ يحمل ربطة النعناع وهو يحاول أن يندس في الصف، وامرأة تحمل طفلة صغيرة، وتشد بيد على طفل صغير، وكانت فتاة في حوالي التاسعة عشرة من العمر تقف أيضا، نحيفة، سوداء العينين، تتفرج بحزن رقيق على الناس، وكانت في يدها وردة بيضاء.

وصلت الحافلة وأفرغت ركابها، وحملت ركابا آخرين، ثم جاءت حافلة أخرى، وأخرى، والأضواء تسطع في أبواب المتاجر، والمقاهي، وعلى الجدران، ومازالت الصغيرة الجميلة تنتظر، وفي يدها وردتها البيضاء.

ولكن المساء يمضي، ويأتي الليل، والمدينة تمتلىء أكثر، والسيارات تقف صفا طويلا أمام الضوء الأحمر، ثم تنطلق عندما يشتعل الضوء الأخضر، والفتاة الجميلة تتطلع بحزن رقيق إلى كل شيء، وفي يدها وردة بيضاء.

ثم أخيرا، أخيرا جدا، يأتي الليل تماما وتتلفت الفتاة إلى كل الجهات، وعندما لاترى أحدا، ترفع وردتها البيضاء إلى شفتيها، وتمسها برفق قبل أن تضعها في سلة الأزبال، ثم تمسح بيدها دمعتين مريرتين، وتمضي.

* * *

صباح الاثنين :

كتبت جريدة في إحدى صفحاتها الداخلية، وفي مكان لايثير أي اهتمام.

(داست حافلة مساء أمس رجلا مجهولا كان يقطع الشارع دون انتباه، وكان يحمل في يديه وردة بيضاء.

الميتون.

تقرأ بصوت مرتفع

«أنـا أستطيع، السماء معلقة فوق لأنني أردتها أن تكون هناك معلقـة، وأنتم تكـرهـون السـماء لأنها بعيدة عنكم، وتكـرهـون الشمس لأنها تعمي عيونكم، لذلك آتي لكم كل صباح بالشمس..

أنا قتلت المدينة، أحلتها جيفة ليس فيها غير صمت المقابر.

أنا أستطيع كل شيء، ألا أستطيع كل شيء؟ تقولون نعم.. أريد أن أسمعها مرة ثانية.. وفي الحقيقة، أنا لاأستطيع أي شيء، حذار أن تفكـروا أن ذلـك صحيح، أنتم تفكرون؟ يجب أن لا تفعلوا، أن لاتفكروا، أن لا تفتحوا أعينكم.

أرى نظراتكم خابية لاشيء فيها ولامعنى لها، هل أكلتم، هل أنتم تحسون الجوع؟ تقولون نعم؟ نعم أكلتم طبعا، أم..؟ إن أحدا لا يموت من الجوع، وأنا هنا، هل ذلك صحيح؟ صحيح، ولكنك أنت لم تقلها مع الآخرين، ماذا؟ تمتمت بشفتيك أن ذلك صحيح، تعرف أني أكره الاحاديث الهامسة، هيا، فلتقلها مرة ثانية دون همس، هكذا، لتصح أكثر بها.

والآن أنتم لاتحسـون الجـوع، أكلتم، كما أكلت أنـا، حماما ودجـاجـا وخـرافا، وكل الأشياء الاخرى، فمن منكم يحس أنه مريض، لا أحد.. هل أنتم أصحاء؟ تقولون نعم، أعرف ذلك،

فعندما أكون أنا، لايكون الجوع، ولا يكون المرض، عندما أكون أنا لايكون شيء.

ولكني معجب بكم، إن شفاهكم اليابسة تغريني بأن أقشر جلودها، أما الوجوه الشاحبة التي تحملون، فهي تعني أنكم مدللون أكثر مما يجب، ومعناه أنني يجب أن، ولكن، افتحوا أعينكم، فأنا هنا، وأنا هنا إن كنتم ترون ذلك، فلتروا ذلك، حدقوا في، هل تفكرون أنني ذكي، وأنني سخيف أيضا، أنا أيضا أفكر أنكم تكرهونني كما تكرهون الشمس، وأنكم تخافونني فقط، ماذا تقولون؟ حاشا لله كم يبعث كلامكم على الضحك، كما يبعث على البكاء أن لايجد إنسان إنسانا واحدا يحبه بصدق، ولكنني أتحول إلى عاطفي سخيف أمامكم، وأنا أريد أن أبدو قويا، أمسح دموعي قبل أن أخرج إليكم حتى لاتروها، أنا أرى أنه لايحبني أحد، والحب لو تعرفون كالخوف تماما.

هل تعرفون من أنا؟ تقولون نعم، فمن أنا إذن؟ هل أنا الذي يستطيع كل شيء، أو الذي لايستطيع أي شيء؟ ألم تفعلوا ما أمرتكم به أمس؟ فعلتم ذلك؟ تقولون نعم، سوف أرى، سوف لن يكون هناك أحد غير الموت، مدينة ميتة، ذلك جميل، أنا الذي قتلت المدينة، ألست أنا؟ ليس هناك أحد. . مدينة قائمة، ولكنها غير قائمة في نفس الوقت، كم هو جميل هذا الموت، خصوصا إذا كنت أنا قد حكمت به.

سوف نخرج الآن إلى المدينة، إلى الموت، لقد أمرتم أن لايخرج أحد، تقولون نعم، سوف تكون المدينة فارغة تماما، ميتة، ولن نمثل بعد، لن تكون هناك حياة نواجهها بجد خطير، لن يكون

هناك قانون، حيث لاأحد، لاقانون، إن ذلك جميل، أليس جميلا ذلك؟ تقولون نعم..

وإذن، فلقد نفذتم كل شيء، المدينة فارغة تماما، لايخرج إليها أحد، لأنني سوف أخرج إليها، مدينة ميتة، ولقد أمرتموهم أيضا أن لا يسمع لهم صوت، أي صوت على الاطلاق، فأنا أردتها مدينة مقبرة، بلا صوت، وكل شيء صامت، فارغ وصامت..

هيا إذن. مستعدون، تقولون نعم، لنخرج إلى المقبرة، إلى المدينة، إلى الصمت والفراغ، إلى حيث لا أحد.

تعالوا من هنا، هذا الشارع الذي كان مليئا بالصداع والضجيج، إنه فارغ الآن، لقد حكمت عليه أن يكون كذلك، أنا أستطيع كل شيء، هل رأيتم معنى الموت؟ إنه أن لايكون هناك أحد، وأن نسير نحن بين ذلك كله.. فلتحركوا أقدامكم، إنكم لستم موتى بعد، إنكم لستم موتى؟ تقولون نعم، أنتم إذن أحياء، هل أنتم أحياء؟ جميل أن لاتجيبوا، حتى نحترم الموت، ونحترم الصمت، أليس فيكم شاعر واحد يحدثنا عن هذا الذي فعلت ولم يحدث قط في أي زمان وفي أي مكان، ولكن ليس بينكم شاعر واحد، فحركوا أقدامكم إذن، هذه الأماكن مصبوغة باللون الأحمر، الأحمر والأخضر، هل سمعتم؟ .....

.....

.....

.....

.....اسمعوا.. صوت، المدينة غير ميتة، غير فارغة، غير.. الصوت، ماذا تقولون؟ طفل صغير يبكي، أعرف ذلك، ولكنه على كل حال يحطم الموت والصمت في المدينة،

ليسكت هذا الصوت، لينته بكاء الطفل الصغير، لماذا يبكي الاطفال؟ أسكتوه، تقولون إنه طفل صغير لايسمع أوامر، فليسكت الطفل، اقتلوه، رصاصة واحدة وينتهي كل شيء، ولكنه طفل؟ ماذا تقولون؟ وهل هناك فارق، خزعبلات؟ إنها حياة على كل حال، لكنها حياة صغيرة سوف تكبر، وجريمة قتل طفل كجريمة قتل رجل، قانون واحد يحكم فيهما، إنه العدل، كفاكم ضعفا، إنكم عاطفيون أكثر مما يجب، إنه يتحداني، يصيح أكثر، فلتقتلوه، آه، انتظروا، سوف تقتلونه الآن وهو يبكي؟ لن يعرف شيئا، رصاصة وينتهي كل شيء، إنني أذكر أسطورة قديمة، هل تعرفونها؟ تقولون نعم، ولكنكم لاتعرفونها بكل تأكيد، تقول الاسطورة أن الطفل هو الحياة، ونحن نقتل طفلا، مجرد طفل، هل نحن متفقون إذن؟ ولكن امسحوا دموعكم الجبانة، وهيا اقتلوه، سمعتم .....

.....

.....

..... إنه

صوت آخر، صوت امرأة، لعلها أمه، إنها تقول(لا)، سمعتم(لا)، شيء كبير، إنني لم أسمع هذه الكلمة قط معكم، إنكم لاتقولون (لا)، إنها تقول (لا)، لا، سمعتم؟ تقولون نعم، كيف أمكن أن تقول (لا) هذه المرأة، هناك من يستطيع أن يقول (لا)، هي لاتريد أن نقتل الطفل الصغير، فلتقتلوها، في الأساطير أيضا أن المرأة معناها الخصوبة، وهي التي تمنح الحياة، ولكنها تقول لا، فاقتلوها ولن يبقى من يمنح الحياة بعد، اقتلوها، اقتلوا الطفل، إنه يصيح، لايستطيع أن يصمت، اقتلوا هذه المرأة، إنها تقول لا، لذيذة هذه (اللا) ولكنني لاأريدها، لامكان لها، أنتم

أقوياء؟ تقولون نعم، امسحوا دموعكم، اقتلوها. . الطفل أولا، الحياة، ثم المرأة، مانحة الحياة. جميل . . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

الصمت يعود، المقبرة، الفراغ، الموت، لقد ماتا، انتهيا، لقد قالت لا، لقد كان يصيح، هل مات؟ عيناهما مفتوحتان، الدم الأحمر يصبغ الأرض، اسمعوا، أحس أن كل شيء أصبح يقول لا، يصيح، دم أحمر، هل ماتا؟ من مات؟ هما، نحن، نحن أو هما؟ لنعد، إنهما لم يموتا، أحسهما أحياء أكثر من أي وقت مضى، أنا أسألكم، من مات؟ لاتجيبون، موتى، نحن الميتون، المدينة تحيى، كلها تقول (لا)، كلها لون أحمر، كلها طفل صغير يصيح، لنعد، إن المقابر تفتح أفواهها. . لنعد. لنعد. . لنعد. .

الريال

كانت كل صفات الانسان فيه، إنه كان يشبه هذه الحيوانات التي اصطلحنا على تسميتها بالانسان. ولكنه كان يضحك في نفسه من أن يكون حقيقة كذلك، فهو لايعرف كيف يكون كالحيوانات الانسانية الاخرى، في حين لايملك في جيبه غير ريال واحد منذ الصباح.

وتمنّى في لحظة تجل لو كان حيوانا من فصيلة الكلاب، لو حدث ذلك، لوجد كثيرا من العظام ينهشها، ومن يدري، فقد تعجب به واحدة من العجائز الثريات، فتأخذه إلى بيتها ليصبح كلبها المدلل.

وتـذكر، وهو يبتسم في الداخل، أنه قرأ ذات يوم في الجريدة إعـلانا عن قطة صغيرة ضائعة«عيناها زرقاوتان، وشعرها يختلط بالبياض والبني»، وفكر: ـ إنني ضائع منذ شهور دون أن يبحث عني أحد.. لو كنت قطة صغيرة.

وعاد يبتسم..

إن مايجمعـه بالانسان أكثر من أي شيء آخر أنه يستطيع أن يبتسم، وإن كانت ابتسامته تأخذ معاني جديدة فتتحول بكاء بلا دموع.

إنه لم يكن إنسانا كاملا إلا في الحلم، أمس، حيث كان يحتضن فتاة زغباء، وكان جيبه منتفخا، ولم يكن جائعا، كان حلما جميلا في الحقيقة.. وفكر: ـ كيف يمكن أن يكون الانسان إنسانا، وليس في جيبه غير ريال واحد؟

كان يفكر، وهو يجرجر رجليه عبر الشارع الكبير، وينقل عينيه بين الناس، الحيوانات التي كان يشبهها. إنهم لايحسون به على الاطلاق، فلو كان كلبا لأخافهم على الأقل، أو لجمعته عربة «الفوريان»، ولو كان قطة لأهدى إليه الأطفال قطعة لحم أو خبزا مندى..

لكنهم جميعا لايلتفتون إليه الآن.. هو.. الحيوان الانسان، لايعرفون أنه جائع، وليس في جيبه غير ريال واحد.

إنهم يعودون الآن إلى منازلهم. فهذا وقت الغذاء، يحملون الفاكهة، يحملون النعناع المكناسي، يحملون ويحملون. وهو وحده لايستطيع أن يحمل نفسه، ويكاد يسقط تحت ثقل أفكاره من مستوى شهادته الابتدائية.. وبطنه الفارغ.

رفع عينيه إلى السماء. فقد تعود أن يرفعهما كلما أحس الجوع، لكنه لم ير الله هناك، فعاد يحنيهما إلى رجليه اللتين تجرجران جسده المنهك ذا صفات الحيوان الانسان.. بعد قليل سيفرغ الشارع من الناس، سيدخلون بيوتهم، ويتحلقون على المائدة، فليبدأ عمله إذن ليأكل شيئا...

إنه يعرف بالفراسة الانسان الذي يمكن أن يحدثه في الأمر فيستجيب له ويمده ببضع ريالات. إنه يختار عادة نوعا من الناس تبدو في أعينهم طيبة متفهمة للأوضاع، فليبدأ إذن..

وراح يتفرس الوجوه . .

هذا الـوجـه تبـدو عليه نفخة كاذبة، وأصحاب هذه الوجوه يكتفون بأن ينصحوه ليبحث عن عمل.

مخابيل . . وهل هو مسؤول إذا كان لم يجد عملا حتى الآن؟ فليبحث لنفسه عن آخر . .

هذا الـوجـه، آه، إنـه طيب فعلا، لكنه يبدو في حالة مادية لاتساعده على إسعاف الآخرين.

وهذا الوجه. قاس وينظر من عل . .

إن هذه الوجوه متشابهة، حتى لكأنها تلبس قناعا واحدا . . و. . . .

بدا له وجه يتطلع إليه من بعيد، وجه صغير وصارم، الحاجبان كثيفان، والشفتان مزمومتان، والعينان عسليتان صافيتان. وهمس في نفسه:

ـ هذا . .

وكـان الـوجـه مايزال يتـطلع إليه، وتنفرج الشفتان فيما يشبه الارتياح، وترتخي القسمات المشدودة، والعينان العسليتان تزدادان صفاء. «كما لو أنه يعرفني . . أما أنا فلا أعرفه قبل»

تمتمت شفتـاه، وفكر: «أو لعلني أعرفه، كأنني رأيت عينيه في مكان ما».

والـوجـه يقـترب منـه، شاحب، صارم، العينـان عسليتان، الشفتـان عادتا مزمومتين، وهو يعد الكلمات التي سوف يقولها له ليأخذ ريالات أخرى، فلن يرجع خائبا من هذين العينين، سوف

يأكل، سوف.. لكن الوجه يقف قبالته تماما«وقبل أن يجد كلماته التي كان يعدها، تسبقه الشفتان المزمومتان، وقد امتلأت العينان العسليتان بسحابة دمعة:

ـ هل تسمح(وابتسم الوجه الصارم)إنني جائع منذ الامس.

وهمت السحابة من العينين العسليتين، واتسعت ابتسامة الوجه الصارم، وقابلتها ابتسامة أخرى صافية، لم تتحول هذه المرة إلى معنى البكاء، وتجمعت السحب في عينيه، ثم مد يده إلى جيبه، أخرج الريال، ووضعه في الكف النحيلة التي كانت ممدودة على استحياء..

ثم عاد يجرجر رجليه في الشارع الكبير، يحمل بطنه الفارغ وأفكاره الصغيرة، وليس في جيبه شيء بعد، وحين كانت السحب التي تجمعت في عينيه قد تحولت دمعتين قاسيتين متحجرتين، كان يفكر:

ـ ريال.. إنه لن يكفيه..

وذابت الدمعتان أخيرا، حين كان يكتشف أنه يعطي الآخرين شعورا بأنه إنسان.. رغم جيبه الفارغ..

رصيف رقم 13

لون الموت يصبغ شفتيه . .

النـاس في القـاعة الكبيرة يجلسون بلامبالاة، بعضهم يغرس رأسـه في جريدة أو كتـاب، وبعضهم يتمصص عصـير الليمون البـارد، وأكثر من واحد يحدق في الاجسام السمراء العارية. هو وحده يجلس جامدا، بلا حركة، وقد هربت من وجهه قطرات الدم:

ـ بعد قليل سأواجه مصيري المحتوم . .

كان يريد أن يموت، حين يموت، بعدأن يشبع من الحياة، كان مايزال صغيرا، وكانت هناك عشرات الابواب لم يجربها بعد، وهو لايريد أيضا أن يذهب في موت مجاني، بلا استعداد ولا مقدمات، ومن غير أن يترك وصية مابعده . .

وبـــدأ يرتعش، حين علا الصـوت المطمئن يعلن أن طائـرة «البوينغ» ستقلع بعد قليل . .

كان مرتبكـا، هو يعرف طائرات«البوينغ» هذه، إنها ضربت الرقم القياسي في الحوادث، وراح يتخيل صحف العالم تنشر بخط عريض: «احتراق طائرة بوينغ ـ الحادث يخلف 98 قتيلا»، والدم يهرب منه وهو يتحامل على نفسه ليقف، ثم ليأخذ طريقه في ارتباك

ظاهر، إلى الباب، وإلى الطائرة.

المضيفة تبتسم، ولكن ذلك لايبعث على الاطمئنان، كلهن يبتسمن هكذا، بثقة بلهاء، وهو لايصدقهن:
ـ أعرف أن هذا كفني..

وامتدت عيناه في جولة سريعة بالطائرة الكبيرة، وحين أخذ مقعده في النهاية، سارعت يداه إلى الحزام الجلدي لمجرد الاحساس بالامان، ثم توقف تفكيره لحظة ريثما اقتعد الكرسي بجواره رجل طويل جدا، يرتدي ملابس غريبة، ثم ودَّ أن يسأله: هل أنت عزرائيل؟ ولكن الرجل سبقه إلى الحديث:
ـ البوينغ هذه.. كأنها قطار.

لم يجب، اكتفى بابتسامة غير ذات معنى، وهو يحاول أن يكتسب قليلا من الشجاعة الوهمية، وكما تعود، تحركت شفتاه تلقائيا بالشهادتين، وبعض الآيات. كان يظن، في بعض اللحظات السريعة، أنه يمتلأ بالهواجس فقط، وأن الطائرة ستصل بعد خمس ساعات من غير أن يحدث حدث، ومن غير أن تجد صحف العالم خبرا تنشره بحروفها الغليظة، ولكنه التفت، مصادفة، إلى الخارج ليرى أرض المطار في هذه الساعات الاخيرة من الليل، فأحس دقات قلبه تضرب بقوة وسرعة حين رآى رقم 13 يضيء بجانب الطائرة..
ـ رقم الشؤم.. الأمر مؤكد إذن، الطائرة تقف على رصيف 13.
أحس رغبة جارفة في البكاء، إنه سيموت، تمنى لو وجد الشجاعة ليعود إلى الارض، وليعلن لجميع الركاب أنهم ميتون هنا، داخل هذه الطائرة: هذا الكفن الطويل كالقطار. ترى من أين تأتيه هذه الشجاعة؟ والتفت إليه الرجل الطويل مبتسما، وفتح فمه

الخرب: «البوينغ» هادئة في سيرها، هي لاتسقط إلا حين تريد أن تقلع أو أن تنزل».

ود لو يصيح في وجهه أن يصمت، هذا أيضا لايجد له شجاعة، سيموتون إذن بعد لحظات، أو بعد خمس ساعات، إنه متأكد من ذلك.. وحين مرت أمامه المضيفة الجميلة، رآى وراء ابتسامتها التقليدية شحوبا غير عادي:
ـ هل تراها تعرف؟

صمت، الطائرة تتحرك، والاضواء تعلن: اربطوا أحزمتكم، لاتدخنوا، وعلى الجانب الايسر ينطفىء ويضيء رقم 13، وعاد يتمتم بالشهادتين، وببعض سور القرآن، في حين كانت يداه تلتقطان حلوى قدمتها المضيفة:
ـ الحلوى لننسى مرارة المصير..

وكانت الطائرة قد تحركت، وبدأت ترتفع عن الارض، سوف تعود إليها بعد قليل، إن السماء عامرة بالسحاب، والحلوى تذوب بين لسانه، وهو يحس أن حياته تذوب سريعة كهذه الحلوى، والطائرة ترتفع، ترتفع بهوادة وبهدوء، وبثقة، ثم ينطلق الصوت: الربان يرحب بكم، سنرتفع 8 آلاف قدم، السرعة.. تصل والكلمات تختلط في ذهنه، وعيناه مغمضتان من الفزع: الآن ستقع.. الآن.. الآن..

وتمضي اللحظات من غير أن يحدث شيء، كله على مايرام، الطائرة تسير سيرا مريحا، الريح رخوة، وأضواء المدينة، حين فتح عينيه، كانت تتوارى:
ـ لن أركب طائرة بعد اليوم.. إنها تقصير للمسافة حقا، بسرعة

تصل إلى بلدك، أو إلى أي بلد، وبسرعة أيضا تصل من الدنيا إلى الآخرة..

وعلت شفتيه ابتسامة مترددة، ثم راح يبحث عن بعض الفتيات رآهن في قاعة المطار رؤية سريعة، كانت ضحكاتهن تملأ سمعه:
ـ لن أموت، أنا مازلت صغيرا..

وحين جاءت المضيفة تسأله ماذا يشرب، مد يديه إلى البيرة:
ـ سأشرب نخب الحياة.. نخب رقم 13 البشع، نخب كل طائرات البوينغ..

عاودته الشجاعة بشكل مفاجىء:
ـ أنا لا أخاف الموت.. ولكني غير مستعد لها فقط.. أعماقه تضحك منه:
ـ حين أصل، سأشرب كثيرا، وسأسهر ليال حمراء متوالية، وسأحب عشر فتيات مرة واحدة.. آه، حين أصل..

نسي نفسه، أغنيته الحبيبة ترتطم بطرف لسانه:
ـ خذني لحنانك خذني..

ماأروع أن يكون الانسان حيا، أن يكون خائفا، أن يقتبل الموت بشجاعة:
ـ يجب أن تكون في الموت بطولة حتى نتقبلها بشجاعة، يجب أن لاتكون اغتيالا..

و.. و..مضت خمس ساعات تقريبا، كان قد تناول إفطار الصباح، وقام مرتين من مقعده، وشرب زجاجة أخرى، وقرأ بحثا عن «التطورات الاخيرة في الموقف الشيوعي».. وتبادل بعض الكلام مع «عزرائيل» المزور. كان الضوء يعلن من جديد: اربطوا

أحـزمتكم، لاتـدخنـوا.. أحس رعشـة، البـوينغ ستنزل، قرأ الشهادتين، قرأ آيات القرآن، وأغمض عينيه في وعد أن يصلي كثيرا لله حين يصل، وأن يقوم بكل أنواع الخير التي لم يكن يهتم لها قبل، وفي قلبه خفقة سريعة عامرة بالرعب:

ـ لن أشرب خمرا بعد.. هذا وعد.

والاهتزاز الخفيف للطائرة يهز جسمه الرقيق، والآيات تختلط على طرف لسانه، وعيناه مغمضتان مرتعشتان، ثم يد تحركه:

ـ الحمد لله على السلامة.. لقد وصلنا.. كان لايستطيع أن يجيب..

كما هي العادة

كانت الريح تعوي، وبدا لها أن الباب تهتز. فكرت أنه قد عاد، وعندما كانت ساعة الحائط قد دقت إثنتى عشرة مرة، أعلنت أنه جاء باكرا هذا اليوم، على غير عادته، فهو في عمله الليلي لا ينتهي حتى الساعة الرابعة من الصباح. وتركت أفكارها لتتسمع، لقد انفتح الباب تماما، هكذا خيل لها. أن يديه تتلمسان الجدران الآن، أنها تسمع صوت اليدين تتلمسان الجدران، أنه يبحث عن زر الكهرباء. هو يفعل ذلك كل يوم، ثم ينطلق الضوء قويا، ومعه تنطلق كحة خافتة، طالما أعلنت له أنه يدخن كثيرا، ولكنه يكتفي بالصمت ويدخن. إنها تحبه في كل أحواله، تحبه بجنون، تحبه حبا يكاد يدهشها. لقد سمعت ارتطام الباب، إنه يغلقها بعد أن يضيء المصباح كعادته.. لماذا عاد باكرا هذا اليوم؟ تخيلت أنه أشعل«البوطاغاز» . لعله الآن يبحث عن إبريق القهوة، إن القهوة لاتؤرقه كما تفعل مع الآخرين. يشرب كأسا مليئة منها بعد أن يأكل قليلا، إنه لايأكل إلا قليلا، ومن أجل ذلك سيظل نحيلا، ولكنه ينام جيدا مع ذلك، بعض ساعات الليل وكل ساعات الصباح. فكرت أن تبعد عنها الغطاء لتنهض إليه، إنها تستطيع أن تقدم له مفاجأة سعيدة إذ تفعل ذلك، لقد كانت تحرص أن يجدها مستيقظة لتشاركه شرب كأس القهوة. ولتقدم له «إناء» السكر وتتأكد من قفل«البوطاغاز». إنه رجل على كل حال، وقد ينسى أن يقفل

الجهـاز، وهو ينسى في أحيان كثيرة إبريق القهوة فوق النار حتى يفيض السائل الأسود على جانب الابريق. وخيل إليها أنها تسمع صوت «فيضـان» القهـوة بالفعل، إنها لاتستطيع أن تنهض، إن الـريح قوية في الخـارج، وهي تسمـع خطواتـه بين غرفة الأكل والمطبخ، المنزل ضيق ولكنه يكفيهما مع ذلك، فهما بعد عشرين سنة من الزواج لم ينجبا أطفالا، لقد اكتفيا بأن تكون طفلته وأن يكون طفلها، وهي لا تغار من الأخريات، وهو لايجد وقتا ليفكر في الأمر. إنها تعرفه جيدا، تعرفه صامتا، تعرف أحلامه وهو نائم، تعرف مثلا ماذا سيفعل بعد أن يملأ الكأس قهوة، سيجلس على الكـرسي في غرفة الأكل، ولسوف يبحث عن موسيقى صامتة في إحـدى الاذاعـات، ثم يشعـل سيجارة، لقد انطلقت الموسيقى هادئـة، وفـاحت رائحـة السيجـارة الامـريكية، كل شيء عنـه أصبحت تعرفه، ولو أنها تنهض الآن لوجدت رأسه موضوعا بين يديه. يداه كبيرتان معروقتان، وبين أصبعيه من يده اليمنىٰ ترقد السيجـارة، وأمـامـه على الـطاولة كأس القهوة، نفس الكأس، بخطوطه الخضراء الباهتة تلون الزجاج. ذوقه عادي، ولكنه تحبه بجنـون. لقـد مضت عشرون سنـة منذ تزوجا، منذ دخلا هذا البيت، وهي دائما تحبه، تحسه قويا بالرغم من كل ضعفه. ورددت في نفسها: «حبيبي وسيد بيتي».

لقد كانت من قبل تخشى أن تمل علاقة الزواج بفعل العادة، وهـاهي العادة تصبح إحدى مكملات البيت السعيد، موسيقى الجـاز تنـطلق، ولانـه يكرهها سوف تمتد يداه تبحثان عن إذاعة أخـرى. حركة ما تنطلق في صمت البيت، لقد حرك يديه نحو الجهـاز الصغـير، كأن عينيهـا تخترقـان الجدار لتريانه. لقد وجد

موسيقى هادئة، كل شيء يسير كما هو، وكما تفكر، وكما هي العادة، لقد أفرغ كأس القهوة، إنه يدخن السيجارة الآن من غير أن يفارق بين نفس ونفس، لقد أفرغ الكأس، سوف ينهض، اه، هاهو يخطو نحو المطبخ، سيرتطم الكأس بالارض كالعادة، مزيدا من القهوة إذن. هل تنهض إليه؟ لسوف يعانقها بعينيه سعيدا للمفاجأة، أنها لم تنم بعد، إذن فمن الممكن... تعرف كيف يفكر، كيف يحرك يديه، تعرف عنه كل شيء، سيكون سعيدا إذا عرف أنها لم تنم.. ولكنها ستترك له المفاجأة حتى يدخل بيت النوم، سيحرس ـ كعادته ـ أن يدخل متسللا حتى لايزعجها، ويلبس «بيجامته» بمنتهى الهدوء، ومن غير أن يضيء المصباح أيضا، ثم يندس ببطء تحت الغطاء، إنها ستحرص أن تقدم له المفاجأة وهو يلبس «البيجامة». فعندما لا يبقى عنده أي شك أنها نائمة، ستضغط على الزر وتشعل المصباح، لسوف تبدو الفرحة في عينيه، ويبتسم، ويردد بهمس: لم تنامي بعد؟ ثم يجلس على حافة السرير من غير أن يكمل ارتداء«البيجامة»، إنها تعرف كل شيء.. كل شيء.. بلا استثناء، لن يناما الليلة إذن، والريح مازالت تعوي وتصفع النافذة، والساعة تدق تعلن الرابعة صباحا، هذا هو موعد عودته من العمل في العادة، كان ذلك موعد عودته. أما الآن فإنه لايعود أبدا. وتلحس الدموع بلسانها، وتهمس من تحت الغطاء:

ـ «أهكذا ياسيد بيتي تموت وتتركني وراءك»؟.

شـهـادات

- محمد زفزاف
- إدريس الخوري
- محمد بعاير قنديل
- أبو يوسف طه
- أحمد منور (الجزائر)

الممكن من المستحيل:
شهادة في ملف دعوى ضد العسف

يبقى «الاختيار الثوري بالمغرب» تشريحا علميا جريئا وشجاعا لواقع الحركة الوطنية وللملابسات والأخطاء الذاتية التي ابعدت الجماهير الشعبية عن مباشرة مسئولياتها في التوجيه على جميع الأصعدة، وإذا كانت الاختيارات المطروحة يمكن أن تتسع فيها دوائر النقاش وفقا لتباين الاتجاهات، فإن القاعدة الذهبية هي في الالحاح على استدامة النقد الذاتي، وطرح أساليب عمل جديدة تماشي مقتضيات تطور الوضعية المتعامدة مع المطامح الجماهيرية.

بالمعايشة ندرك أن الجماهير تعيش أوضاعا مزرية متسمة بنفيها في واقعها، وممارسة كافة الضغوط لتمريغها في المزيد من البؤس والاعتساف، وإذا كان لينين يؤكد على أن الدولة هي منتوج لتناقضات طبقية، فإن الطبقة الضالعة في التواطؤ استطاعت بوسائلها أن تفرغ الشعارات من محتوياتها وأن تستحوذ على كافة الامتيازات التي انتزعتها الجماهير من الاستعمار.

هذا يحفزنا الى الاقرار بأن تناقضا مبدئيا وهدفيا بين قوى «ليبرالية» مسنودة بالاستعمار، وقوى جماهير تعيش وضعية استلابية، هي قوى العمال والفلاحين والمثقفين المستنيرين، هو الذي يشكل السيمة العامة لتطورات الوطن بدءا من الستينات، وأية محاولة ترقيعية لا تشكل في النهاية إلا موقعا سيزيفيا موغلا في

العبث، والأكيد أن هذه الصراعات ليست محدودة في المجال التحتي للمجتمع، وإنما الجبهة الثقافية تعكس الوجه الآخر للمعركة، صراعات عنيفة بين مفاهيم تكريسية تحتقر الجماهير وبين مفاهيم نابعة من واقع هذه الأخيرة البائس، وباعتبار الأدب فوقيا لتوعية النشاط الانساني، لهذا كان هناك أدب يرتدي «دربلة» مولاي عبد القادر الجيلالي ليتمرغ على الأعتاب متسولا فتات الموائد، وأدب يلتزم هموم الانسان المغربي وتطلعاته، كما يقول محمد برادة: فالأدب يتابع ايقاعه الخاص المتأثر قليلا أو كثيرا بالأحداث، وقد يكون محتواه متفوقا أو متخلفا عن التاريخ، والذين أرادوا في أقطار أخرى أن يطابقوا بين المخيلة والفعل، بين الايديولوجية ومغامرة الكلمة، قد اساؤوا للفنانين وقسروهم على الاضطلاع بدور «كتاب عموميين». إن الكلمة لم تكن قط مغامرة، وإنما تعبيرا عن قناعة يقينية بمقدرات الجماهير وبالمقابل هناك ضريبة الوعي، يقول مارك توين: «نحن والحمد لله نملك ثلاثة في بلدنا لا تقدر بثمن: حرية الكلام، وحرية الاعتقاد، وحكمة عدم استعمالهما» فالأديب المكافح ليس في موقفه أي إرغام قسري ولا يضيره أن يصبح كاتبا عموميا باعتبار الأدب وسيلة لمحاربة سلبيات الثقافة الوثنية الرجعية.

مرة قال فرانز فانون: البؤس لا يحرك الشعوب وإنما يحركها الوعي به. والأدب في طوق مكنته أن يضطلع بهذه المسئولية لتعميق الوعي بالحالة الدونية، وتحفيز الجماهير للعمل، كثيرون إزاء معطيات معينة تمادوا في طرح هذا الاستفهام بقلق ميتافيزيقي، ما جدوى الكلمة؟ ! سؤال جد خصوصي، ولكن القانون الحاكم لتطور المجتمع يؤكد حتمية صراع الكلمات، ليس صراعا قاموسيا،

ولكنه صراع الدلالات والتناقضات، سوف يكسب فعاليته انطلاقا من تدعيمه بالممارسة الجادة، لهذا فالبطولية والفدائية صفتان لصيقتان بالأديب الذي يصوغ واقعنا صياغة تبعث الانسان الجديد الذي لا يختفي وراء جبنه !

ضمن هذا المجال ولدت مجموعة «الممكن من المستحيل» لعبد الجبار السحيمي. وإذا كانت القصة شريحة الحياة، فإلى أي مدى استطاع الكاتب بمجموعته أن يصل في استيعاب مشاكلنا الساخنة؟ وما هي الآفاق التي نطرحها كوجهة نظر ملتزمة ومسئولة؟ ثم ما قيمة المجموعة في الواجهة المكتبية بالمقايسة مع مجموعات أخرى؟ (أخشى أن أقوم بعملية إسقاطية). ثلاثة أسئلة أحسبها ضرورية لايجاد نوع من الشراكة في الفهم مع القارىء، هذا العطاء الفني بمجموعه يشكل في الأساس مواكبة للانسان المغربي في هواجسه وعذاباته تعرية لواقع الرتوش، وفوارة الموسيقى دخول الى المدينة من باب خلفي، تنعدم فيه أضواء النيون، والسيارة الفارهة، والبيت المودرن، عملية التقاط الانسان عبر صراعات ضد التليكس والقطيعة، لكن جوهر الناس (الدونيين، الصعاليك، اللي تحت!) يبقى جوهرا نقيا صافيا، رغم كاريكاتورية العالم الأسود، هناك نقطة مضيئة (اسمعي يا زهرة، إنني لن أفعل ذلك بعد.. ثم أغرق في بكاء ندم لم يكن يفهمه أحد) !(قصة حمدان) إنني أحس تعاطفا مع مأساوية موظف بسيط يشهد ثراء الرؤساء؛ خطأ المنطلق وجريمة الابتراز، بينما يعيش مضغوطا، تحت ظروف معيشية قاهرة، الفيلات، السيارات.. إنه واقع في اسار مجتمع يعطيه القليل مقابل استهلاكه، لتعيش أحقر من الكلب. يسقط ـ حمدان ـ في اللعبة بالارغام، ولكنه برىء،

عامر باستقامة وطيبوبة الانسان المغربي المسحوق تحت طواحين الاستغلال، و(في المدينة) هناك شيء مفقود، هناك استمرار للنضال، فالليل يجب أن يموت ليتجدد هذا الاستمرار وتتحقق الحرية، مسئولية احتضان التاريخ وتكميل انتصاراته لتزرع في حدائقنا الابتسام، إن الابتعاد يجعلنا نعيش في المنفى، أن نكون وراء القضبان أو لا نكون فنحن في (السجن الكبير) فتسييج الانسان بوضعية شمولية غير عادلة هو إيداع في الاعتقال، مصادرة نفسية وفكرية ثم مادية بالتالي. الحرية يجب أن تنبع من الأعماق ساعتئذ سنكون قد اكتشفنا أن خوفنا كان من فزاعة !سواسية نحن في الاصطلاء بالسيف والعفونة. هناك أشياء مقدسة أصبحت سلعة في ماخور دعارة (الأصباغ) لأن سحب الخريف تبرقش السماء !لكن ليس هناك من يجرؤ على ايقاف التاريخ فالحياة مستمرة في نسغنا حارة، في الخارج الحياة راكدة، ولكن في العمق نجد استدامة الكفاح لربط الحاضر باشراق الماضي، ليولد مستقبل نظيف، سوف تتجدد عبره آلامنا لتولد من جديد.

جدي.. جدي.. إنه يشبهك !(قصة ميلاد). الولادة تتطلب حضورا، أن نفر بأوهامنا وأحلامنا برؤانا، نتشرنق صانعين عالما تعويضيا نحسب فيه الاكتفاء الذاتي دون أن نضرب الأرض بأقدامنا، سوف نأتي متأخرين، ويكون الزلزال قد أفنى المدينة (الفرار).

أن نبيع دماءنا مقابل أن نعيش والشمس وجدت لتشرق للجميع، سنكون قد رسمنا نهايتنا، أن تسفح الدماء نضالا مغامرة شهية ولذيذة (في منتصف الليل) المحتوم هو قتل الجُبن النائم في

نفوسنا، أن نتجاوز ونتخلص من كثير من الاشكاليات والأوهام، أن نرتكب جريمة قتل مشروعة دفاعا عن أنفسنا كذلك أن تسقط ذبيحا بالاغراء معناه التمادي في اللعبة، قوة الجسد يمكن أن تثنيك عن اعتزام وضع النهاية، لكن الجسد دافىء الآن.. ولكن الحتمي أن النهاية ستكون.. إننا إذا تتبعنا المجموعة لا نجد أنها تخرج عن هذا المسار في استيعاب واقعنا المعاش، وهو استيعاب يقف مع الجماهير صفا واحدا يضع سبابته على الجرح الفائر الراعف دون تعليمية، موقف إدانة، فمن قصة «الحكاية الحزينة» حيث اللقاء لم يتحقق الى الغياب المأساوي في «كما هي العادة» نجد عبد الجبار ينطلق من أرضية بسيطة ليكتشف مضامين كبيرة، ورؤيته تتطور عبر مسالك غاية في المنطقية، فمن تجميع لدلالات عدة، من مواجهة الزلزال بشكل ينطوي على عدم الاكتراث من قبل «الدرويش» لأنه لا يملك ما يخسر غير وجهه أو بصيغة ثانية عدم تسجيل الحضور إزاء واقع ما، الى العديد من مواقف المكاشفة الصريحة في باقي المجموعة، من غير قصة «الزلزال» نلاحظ تطورا من البساطة، من نتائج الوضعية النشاز الى إيضاح العدو الحقيقي والاشارة إليه باصبع الاتهام، ففي قصة «العربة»: مولاي الحاج يبعد انسانا من سياقة عربة ليعوضه بحمار يضرب ولا يحتج مكافأته لهيب السوط وعلف رائع، والقصة ترمز الى خروج الشعب من مكانه الطبيعي، ووضع الأقدام في موقف الموجهين والقائدين، ويا سوء من تحكمه الأقزام، أناس نفعيون انتهازيون يعيشون بمبعدة عن المشاكل التي تحترق بها جماهيرنا، إنهم نبات لولابي، لا يجرؤون على قول (لا) لأن اخوة المصالح تربطهم بوضع عفن يجب أن مقتضيات الوضعية المتعامدة مع المصالح يصحح بأساليب ملائمة (لا تخافي.. !إنني سأقتل الحمار هذه الليلة) من هو الحمار يا ترى؟

الميتـون الذين يقولون نعم، السماسرة الذين يتاجرون بمقدرات الشعب. لكن الأمل في هذا الشعب عظيم كما يؤمن السحيمي في قصة «الميتون»، ستستمر الأوامر رغم الأوامر القهرية لأن هناك من يقـول لا ضد الارهـاب والعسف، فهذا الشعب الذي جرد من إنسانيته بالتفقير والتجويع شعب معطاء، يحمل إنسانيته كقدر، ويستطيع توكيدها، بنضاله، بعطائه (الريال).

إن الميزة الوحيدة هي أن المجموعة خرجت من الأرض، التي كانت ملف دعـوى ضد العسف، وفي الاجابة عن سؤالنا الثاني يمكن التوكيد على أن المجموعة تفتح الطريق للعودة الى الجماهير واستلهامها، لأن الجماهير هي وقود عمل يهدف الى التغيير، هذه العودة يجب أن تكون كلمة وفعلا، وإلا سنكون غارقين في ممارسة الكلمات المتقـاطعـة !.أمـا الـطابـع العـام الـذي يميز المجموعة القصصية عن كثير من الأعمال في هذا المجال، الأعمال الغارقة في معميات لغوية (كالعنف في الدماغ، وبوتقة الحياة، وقدر العدس وليسقط الصمت . . الخ) هو وضوح الرؤية لدى الكاتب مع وجود تنـاسق هرمـوني بين أسلوب غاية في البسـاطة ومضامين هادفة، فالسحيمي لا يلهث لاصطياد كلام منفرج بالرتوش، لهذا جاءت قصصـه وأنت تحسهـا تحاورك وتكلمـك دون إتيكيت وأقنعـة، وتكـاشفـك مكـاشفـة نحن في أحـوج ما نكون إليها في ظروفنا العصيبة، قصص ملتزمة وملكية على الشيع بتعبير قانوني، وتبقى المجموعة في النهاية إضافة فنية جادة وعملا نضاليا هادفا نتمنى أن تتلوه محاولات أخرى.

أبو يوسف طه

«الممكن من المستحيل»:
والواقعية المتعقلة

كتب إميل زولا مقدمة لاحدى رواياته جاء فيها: «إنها عمل حقيق، وهي أول رواية عن الشعب، لا تكـذب لأنها رائحـة الشعب.» وهذه النتفة لم أوردها صدفة وإنما دفعني إلى إثباتها حقيقتان:

أولهما أننا مهما نخلع على مجموعة «الممكن من المستحيل» من أوصـاف فلن نجد أحسن من وصفها بأنها رائحة الشعب. لأن السحيمي لا يكتب عن لحظات غرام مراهقـة أو حوادث يومية تافهـة، ولا يختلق مواقف مفتعلة، وإنـما هو قلم واقعي أصيل يستقي موضوعاته من هذا الشعب الذي هو جزء منه، وهو بذلك قد تخطى مرحلة مرحلة المحاولة الحائرة وشق لنفسه طريقا في أرضية القصة المغربية.

أما الحقيقة الثانية فهي أن القصة المغربية الحديثة تطغى عليها ألوان الواقعية التي تأخذ من الشعب وتعطي للشعب فتكتب عن هذه الجماهير الكادحة وتصور صراعاته المادية والمعنوية اللانهائية.

وقد كنت أظن قبل أن أقرأ «الممكن من المستحيل» أن الكاتب الذي يرتبط بجريدة ما لابد وأن يصاب تحت تأثير هذا الارتباط بإجهـاض فني يفقده كل طاقاته الفكرية ويسقطه في روتين قاتل واجترار لكتابات سابقة.

ولكنني عندما قرأت «الممكن من المستحيل» وهي المجموعة القصصية الأولى للأخ عبد الجبار السحيمي غيرت رأيي وأصبحت أومن بأن الكتابة باستمرار وخاصة تحت تأثير هذه الظروف الارتباطية التي لا ترحم وإن كانت تقدم في غالب الأحيان ألوانا ينقصها الطبخ الجيد فهي لا يمكن أن تنضب قلم الكاتب المبدع.

وأنا لن أتحدث هنا عن السحيمي كأحد رواد المقالة الفنية في بلادنا ولا كمثقف واع يبدي رأيه في كل مدركاته، وإنما سأتحدث عنه كقصاص خبير بأسرار هذه اللعبة السهلة الممتنعة التي أغرت الكثيرين وما زالت تغريهم بقصرها الخداع حتى إذا اطمأنوا إلى أنهم قد ملكوها أسفرت لهم عن وجهها الحقيقي فاكتشفوا أنهم ما يزالون يسبحون في فلك المحاولات.

ويطالعك في البداية عنوان المجموعة «الممكن من المستحيل» وهو ليس كتلك العناوين البسيطة التي تكشف لك منذ الوهلة الأولى عما وراءها، وإنما أنت مضطر هنا الى أن تقف طويلا أمامه الى أن تتساءل: ما هو الممكن؟ وما هو المستحيل؟ وما علاقتهما بالمجموعة كلها؟ وستدرك أن السحيمي لا يكتب لتسلية القراء ولا لقتل فراغهم وإنما يرغمهم على بذل الجهد لفهم كتابته.

وأنت حين تقرأ هذه المجموعة ستقرأها ولاشك بأنفاس لاهثة، لأنك تريد أن تعرف مصير هذه الشخصيات المختلفة. حتى إذا وصلت الى النهاية وجدت نفسك مدفوعا الى العودة من جديد الى هذه القصة أو تلك لتجمع تلك الاشارات الخاطفة التي نثرها الكاتب هنا وهناك عن دراية وخبرة.

وإذا كنا نؤمن بأن الاتجاه الفني الذي يلائم ظروف البلدان

النامية هو الاتجاه الواقعي فإن السحيمي قد التزم هذا الاتجاه فظهرت مجموعته كلها مطبوعة بطابع الواقعية التي لا تحتاج الى تأويلات أو تخمينات (باستثناءقصة رمزية واحدة هي «الميتون»).

وهي واقعية متعقِّلة لا ترمي الى مسخ الحياة وتشويهها قصد تنفير الناس منها أو كسب عطفهم عليها، وإنما هي لقطات مغربية صميمة جمعها السحيمي وأخرجها لنا في قصص جديدة مبتعدا في الوقت نفسه عن الحرفية أو الرؤية الفوتوغرافية التي تنأى بالعمل الفني عن الأصالة وتحوله الى لغو فلكلوري مبتذل منطلقا من خبراته الفنية التي تجعله يميز بين الظلال والألوان فيحذف ويضيف الى هذا الواقع المجتمعي دون أن يمس جوهر الصورة.

وأنا هنا لن ألجأ الى تلخيص المجموعة كلها التي تشتمل على ستة عشر قصّة، لأنني أومن بأن التلخيص إن لم يقتل الانتاج الفني فهو يشوهه ويحوله الى غذاء فكري معلب. ولذلك سأقتصر على عرض قصتين نتوصل من خلالهما الى هذه الواقعية المتعقلة التي أشرت الى أنها من مميزات السحيمي.

فالقصة الأولى «المساء الأخير» تصور العلاقة التي نشأت بين شاب وفتاة جامعيين، وقد تعودا أن يلتقيا في أحد المقاهي كل أمسية سبت، فيحب الشاب الفتاة ويتمنى أن تشاركه هذا الحب، ولكنها كانت دائما تبدو متعبة «حين تأتي سيكون على وجهها نفس التعب القديم» تسرح بنظراتها بعيدا كأنها في حلم، لم تكن تؤمن بالحب وإنما كانت تنظر إليه على أنه «أكبر سخافة في حياتنا». وأخيرا يقرر الشاب أنها فتاة مثقفة ومعقدة «يبدو لها أن الآخرين غارقون في التفاهة والسطحية و أنها تتحملهم من غير أن تشاركهم أبدا «وفكر

في أنه يريد «فتاة بسيطة» فتاة تحمر خجلا عندما أغازلها وترتعش حينما أقبلها».

أما بطل قصة «الريال» فكان «يجرجر رجليه عبر الشارع الكبير» لا يملك سوى ريالا واحدا يستقر في جيبه. كان جائعا عندما كان الآخرون يعودون الى منازلهم وقت الغذاء. ولكنه لم يكن يمد يده لأحد لأن الأفكار التي لصقت في ذهنه من شهادته الابتدائية زادته أنفة وعزة، الشارع بدأ يخلو من المارة سيتحلقون بعد قليل حول موائدهم وهو جائع، بدأ يتفرس الوجوه ولكنه لم يطمئن الى الكثير منهـا، وفجأة أحس براحة داخلية عندما سقطت عيناه على وجه أحـدهم، لن يرجع خائبا سوف يأكل وأخذ «يعد الكلمات التي سوف يقولها له ليأخذ ريالات أخرى» ولكنه فوجىء بسحابة دمع تملأ وجه هذا الغريب وبصوته يقول: «هل تسمح إنني جائع منذ الأمس» لم يندهش وإنما أخرج الريال من جيبه «ووضعه في الكف النحيلة التي كانت ممدودة على استحياء».

ولا شك أن هذه أفكـار السحيمي يوصلهـا إلينـا عن طريق خواطر أبطاله وحوارهم، ولكنه ليس بسيطا الى هذه الدرجة التي تجعله سطحي التفكير يكتفي بالسرد والرؤية الفوتوغرافية، وإنما هو يناقش قضايا فكرية تعتبر من مشاغل عصرنا.

ففي قصة «المساء الأخير» يطرح مشكلا ثقيلا يقع فيه كل مثقف حديث، هو مشكل الزواج: هل نتزوج بالفتاة المثقفة التي قد تكون معقـدة فنشقى بأفكارها وفلسفتها، أو بالفتاة العادية التي تكون جاهلة فنصدم بتخلفها وسذاجتها.

وفي قصة «الريال» يتعرض لهذه الغربة الساحقة التي يحسها كل

إنسان عاطل عن العمل يحمل أفكارا نظيفة في رأسه حتى أن البطل العاطل عن العمل والذي لا يملك سوى ريالا واحدا «تمنى لحظة تجل لو كان حيوانا من فصيلة الكلاب، لو حدث ذلك لوجد كثيرا من العظام ينهشها ومن يدري فقد تعجب به واحدة من الثريات فتأخذه الى بيتها ليصبح كلبها المدلل» وعندما قرأ البطل إعلانا في جريدة عن قطة ضائعة فكر: «إنني ضائع منذ شهور دون أن يبحث عني أحد لو كنت قطة صغيرة».

وقد تندهش لسلبية السحيمي هذه فهو بدلا من أن يدفع ببطله الى مواجهة الواقع ومحاولة الحصول على عمل يجعله «إنسانا» منهزما يتمنى أن ينقلب الى كلب وقطة!

وشيء غريب جدا أن يتمنى الانسان وهو أرقى حيوانات الأرض وأذكاها وأنبلها أن يستحيل الى حيوان لا يعقل! ولكنه الواقع: ذلك أن السحيمي لا يريد أن يضحكنا هنا وإنما يدفعنا برفق الى التفكير بجد في قضية نفسانية يصاب بها كل من ذاق مرارة الفشل في كل ميدان حاول الخوض فيه، إذ ذاك ينقلب إنسانا مهزوما من الداخل يرى أن القدر يعاكسه وحده دون سائر الناس، فيغضب ويثور ولكنه عندما لا يتوصل الى تغيير الواقع يسقط لا شعوريا في تيار أحلام اليقظة فيتخلص من هذا الواقع الحياتي الذي يواجهه ويلتجيء الى الخيال يحقق به ما عجز عن الوصول إليه في مجتمع مادي لا يلتفت إلا لأصحاب الجيوب الفياضة والمظاهر البراقة.

ولكن السحيمي فنان قبل كل شيء لا يظهر لك من الصورة إلا ما يراه ضروريا، وهكذا فهو لا يعرض لك نظريات علم النفس، ويدوخك بمصطلحات، وإنما يكتفي بالتلميح والاشارة، ويترك

الكثير من التفصيل لذكاء القارىء لأنه كاتب قصة وليس محاضرا في جامعة.

وأما شخصيات السحيمي فمسرحها الذي تتحرك فيه هو هذا المجتمع المغربي الذي نعيش فيه. وهي شخصيات متنوعة فمن جار للعربة يحصل بها قوت يومه وهو بذلك يحل محل الحمار، الى المسافر الذي يطير في «البوينغ» ومن البسيط الذي لم يلتحق بمدرسة الى طالب الجامعة وتمتاز هذه الشخصيات بأنها حقيقية ومستميتة تقاوم تيار الحياة العنيف الذي يهددها كل يوم بالضياع والاهمال، وهي في الوقت نفسه تتمسك بهذه الطيبوبة النابعة من أعماقها والتي لم تستطع الماديات أن تخنقها ولا أن تميتها، فالعاطل في قصة «الريال» لا يمد يده لجميع الناس بل يميز بينهم وحتى وهو في أعلى درجات الألم يبقى طيبا فهو لا يطلب من الله أن يسلط على الناس زلزالا أو كارثة وإنما يتمنى فقط أن يصبح كلبا أو قطة. وكذلك البطل «حمدان» الموظف البسيط بالمحكمة فهو عندما تسلم مائة ألف من الحاج بوشعيب وأحرق ملف القضية كاملا و«كان هناك تلفزيون وحذاء جديد في رجل خديجة» عاد ضميره يعذبه بلا هوادة وما لبث أن صاح في وجه زوجته:

«اسمعي يا زهرة إنني لن أفعل ذلك بعد، ثم أغرق في بكاء ندم لم يكن يفهمه أحد».

وتبدو أصالة السحيمي في تغلغله في نفسيات شخصياته حتى يخيل إليك أن الكاتب لم يترك طريقا في الحياة إلا سلكه.

والحقيقة التي لا يمكن إنكارها بعد قراءة المجموعة كلها أن

السحيمي ينفرد بميزتين: البساطة في التقاط موضوعاته مما يحيط به وهي موضوعات يعيشها جميع الناس ولكنهم لا ينتبهون إليها فهو مثلا من الذبابة اللجوجة و«تكتكات» الساعة و«طقطقات» ماء الصنبور الذي لم تحكم الخادمة إغلاقه ينسج لك خيط قصة عنوانها «في منتصف الليل» فإذا أمامك البطل وهو يريد النوم وهو «لن ينام إذا لم يولد الصمت كاملا» ومن أجل ذلك يقضي على جميع المضايقات «الذبابة تقتلها حين تضايقك، الساعة تبعدها، الأنبوب تقفله بإحكام» ولكنه لا يستطيع التخلص من أنفاس زوجته «هذا الجسد الذي يرقد الى جوارك هو لعنتك» وعندما فكر في التخلص منها أحس بدفء جسدها يحاصره إذن «لابأس» فلتؤجل مشروع الجريمة الى يوم آخر. . الجسد الآن دافىء».

والبساطة تطبع كذلك أسلوب السحيمي فهو لا يظهر عضلاته اللغوية وإنما يلجأ الى اللغة اليومية المستعملة التي ليست رخيصة مبتذلة ولا قاموسية منفرة.

وأما الانسانية فهي نابعة من الموضوعات نفسها ذلك أنك تحس في كل قصة أن هناك ناسا آخرين يتألمون في الخفاء لا أحد يهتم بهم ولا أحد يحاول وضع أصبعه على تمزقهم، وإنما يمضون هكذا الى أن يلاقوا الهلاك غضبا عليهم ففي قصة «الأصباغ» تعرض لهذه الفئة القليلة من الشباب التي ترتاد بيوتات بائعات اللذة ويلتقي أحدهم بتلك التي تعود لقياها، وعندما ذكر لها أنه طالب كالآخرين وقالت له «الله يعينكم» التفت إليها مذعورا. . ليس هذا المكان لذكر الله» ولكنه عندما سمعها تقول: «الله كتب علينا هذا. . لو لم يكن راض لنا به لخرب هذا المكان في لحظة»، أحس أنها لم تترك له مجالا للنطق بأية كلمة. وفي قصة «السجن الكبير»

يلتفت السجان الى السجين ويقول له بهدوء من جرب كثيرا:

«اسمع هل تريد أن تعرف الحقيقة أنت سجين دائما حتى إذا لم يحكم عليك بالمؤبد. . أنت سجين داخل نفسك، وعندما لا تنبع الحرية في أنفسنا ومنها فإن السجن سوف يكون لنا في كل مكان».

ولا يسعنا في النهاية إلا أن نؤكد بأن السحيمي قد تخطى بالقصة المغربية الحديثة مرحلة المحاولة الحائرة وتركها تسير في طريق الأصالة الواعية أو كما قال الأستاذ محمد الصباغ: «أما على يديه فقد استوت فنا مربعا يصدره المغرب الى الخارج».

محمد بعاير قنديل

عبد الجبار السحيمي لـ«الدستور»:

الكتابة القابلة للنشر في الزمن البوليسي مدانة

■ عندما صدرت مجموعته «الممكن من المستحيل» ـ 1969 ـ اعتبرت من العلامات المتميزة في مسيرة القصة المغربية.

أكثر من عشر سنوات مرت منذ صدور تلك المجموعة وعبد الجبار السحيمي صامت، ينشر بين الحين والآخر خاطرة أو تعليقا في جريدة «العلم» التي يتولى مسؤولية القسم الثقافي فيها، ولكنه ما أدلى بحديث صحفي ولا نشر قصة. فهل دخلت الكتابة في المستحيل؟ في هذا اللقاء يبوح السحيمي لـ«الدستور» بأن صمته كان احتجاجا:

احتجاجا على الذات لدفعها الى التجاوز، وصولا الى الكتابة المستحيلة، «غير القابلة لأن تكتب» على حد تعبيره.

واحتجاجا على المشرق الذي «يتفرج» على المغرب، أو يبعث من يجمع الفرجة في كتاب.

ولا نريد أن نلخص المهم الذي قاله عبد الجبار السحيمي، فلنرافق التفاصيل إذن.

○ ما بين صدور مجموعتك الأخيرة «الممكن من المستحيل» 1969، والى الآن مدة ليست بالقصيرة، عم كنت تبحث خلالها؟

■ لو قرأت ما كتبته كمقدمة للمجموعة، ونشر وقتذاك في

«مذكرات العلم» لعرفت عن أي شيء أبحث كل هذا الوقت.

عنوان المجموعة نفسه «الممكن من المستحيل» يقول الكثير عن هذا الشيء الذي أبحث عنه.

إنه الكتابة غير المكتوبة، غير القابلة لأن تكتب، الكتابة المستحيلة، هذه التي لا تكرر شيئا ولا حالة.

صحيح أن «الممكن من المستحيل» كمجموعة قصصية مغربية طبع منها أعلى رقم ونفد من السوق سريعا، لكن هذا لا يعطي شخصيا أي إمكانية للاستكانة، بل لعله أعطى لعذابي عاملا إضافيا، لقد قرىء في «الممكن من المستحيل» السياسي لا المبدع. كانت كتاباتي يومية في الجريدة، وكلها كانت كتابات مناقضة، معارضة، رفضت أن أكتب أيا منها في كتاب، وقد وقع القارىء في فخ أن يجد كاتب الجريدة في كاتب القصة.

لم أكن أستطيع أن أتصور أن هذا الاسقاط يمكن أن يحدث، وحين شعرت به، امتلأت بالخوف من الكتابة، ولم أستطع بعد أن أعقد صلحا بين كاتب المعاناة اليومية سريعة التأثير والانطفاء، والكتابة المبدعة التي تتميز بأنها تحفر في الذاكرة جرحا لا يبرأ. إنني منذ ذلك الوقت أبحث عن كتابة غير قابلة لأن تنشر، لأن الكتابة القابلة للنشر في الزمن البوليسي مدانة.

○ إذن وأنت تعيش غمار هذا العذاب اليومي الذي اسمه الكتابة، ألست نادما على الاختيار؟

■ شخصيا لست نادما، ولست نادما بالذات لأنني رفضت دائما هذا التكرار العاهر للتعابير والصيغ. لن أعطي أمثلة فـ«الدستور» رغم أنها الأنظف في ساحة القذارة، ستكون مضطرة الى أن تحذف

ما يغضب الصديقات والأصدقاء من كتابها. ولعل السياقة بحكم العادة سياقة جيدة، ولكن الكتابة بحكم العادة، وحذاقة العادة والتمكن ستكون باستمرار كتابة ساقطة. ولست نادما بكل القوة التي أملك لأرفض الكتابة بحكم الحذاقة وبحكم العادة..

○ تحدثت مرة عن أصوات القصة المغربية المعاصرة التي ليس بالمستطاع الحديث عن تفرد كل منها. كيف ترى أسباب هذه الظاهرة؟

■ مرة واحدة وجدت القصة المغربية، حين كانت تؤسس انطلاقا من فراغ. ثم بعد ذلك استكانت كلها الى نموذج واحد، تتناسل حاملة نفس البصمات. أصوات صارخة على نفس الريتم، الخوري وزفزاف وشكري والمديني والهرادي وأنا والآخرون، ثم توحدت في صرخة جماعية.

لا يعني ذلك بالتأكيد استهانة بعطائها، لكنه يعني عدم القدرة على التجاوز، لا تجاوز الذات ولا الآخر. ولقد قلت أيضا أنك يمكن أن تقرأ قصة لكاتب، ولا تخطىء حين تنسبها للكاتب الاخر. فكيف يمكن التفرد إذن؟

للظاهرة مؤشران: الاغتراف من نفس المنبع، الذات والواقع، ثم ضيق مجال التجربة، ولو في مجالها الذاتي. دعك من الاسقاط الفكري الذي سجن الابداع وكيفه. ألم تقرأ اعترافات زفزاف حين صرخ بأنه يريد أن يكتب كما لا يتوقع منه الآخرون؟

○ نادرا ما تدلي بحديث صحفي وكأنك بهذا تدين الآخرين؟

■ حين أكتشف الشرق العربي، هذه الجزيرة المسحورة، بدأ يقدمها كفرجة.

يأتي بول شاوول فيجمع الفرجة في كتاب، كأنما هو كولومبس الذي اكتشف الضفة الأخرى للعالم. يأتي محرر صفحة ثقافية من بغداد أو بيروت أو دمشق، ومن غير أن يكون قد تعرف على ملامح وجهك، أحرى أن يكون قد قرأ لك، يفتح شريط التسجيل ! كرهت سوق النخاسة هذا. كرهته أكثر حين رأيت الذين لم يكتبوا بعد، يستضيفون «زوار» الصيف استدراجا لاجراء حديث معهم.

وبعد كل هذا، ماذا تقول مثل هذه الأحاديث الصحفية؟ أسئلة عامة وإجابات تقريبية. لا واحدة منها اعترفت بأن المعطف الأدبي الذي نرتديه، هو بقايا «روبابيكا» نجيب محفوظ ويوسف ادريس أو زكريا تامر، بل وتيمور أيضا ـ بل ـ ولا تضحك ـ المنفلوطي. لا أحد اعترف، بأن شيئا من حرب طواحين الهواء قائم في حياتنا الثقافية.

كل الأسئلة عاقلة وكل الاجابات. وكل الأسئلة والاجابات على المقاس، لا تريح ولا تزعج. فلماذا الحديث الصحفي؟

○ قيد الطبع لك الآن مجموعة قصصية جديدة. ما هي الملامح قياسا بـ«الممكن من المستحيل»؟

■ إنني أحاول أن أكتب على الجسد. الورق سهل التمزيق. لكن التمزيق في الجسد يوجع. ومن بين أربعين قصة قصيرة، جرأت أن أنشر ستة عشر في «الممكن من المستحيل»، كانت الأقرب الى مداراة العجز.

في المجموعة الجديدة «السيف والدائرة» أحذف كل مرة قصة وأضيف أخرى ثم أحذفها ثم أعود لأثبت الأولى، وهكذا ستكون

الملامح في النهاية هي ما يكون غير قابل للتجاوز ذاتيا. مكابرة، ألا ترى ذلك..؟ يشغل هذا الهم بالذات المجموعة القادمة: المثقف في مواجهة الاحباط.

○ في ظل هذا الاحباط الذي يتوزع الخارطة العربية تتراجع الثقافة أمام وجه السجان. ببصيرة المبدع كيف ترى المستقبل؟

■ السجـان لا يخلق المثقف. لكن المثقف دؤوب على خلق السجان وإقامة الأنصاب والتماثيل له.

والسجان عملي، والمثقف تنظيري وتشغله الاستراتيجية ويشغله التاكتيك، وتأتي الموجة فتطمس قصر الرمال.

المستقبل للبحر وللجبل وللرومانسية الثورية. هي مرحلة لم يبلغها العربي بعد.

○ عبد الجبار السحيمي، أخيرا، ماذا يشغلك حاليا؟

■ يشغلني البرجوازي الصغير الذي ننسجن فيه، ونبحث أن نداريه بيافطة «الوعي الشقي» المخادع الذي يسكننا.

يشغلني الجنس ويشغلني المستحيل. ولقد كتبت مرة أن لا أجمل من الثورة غير البكاء.

ها أنذا مرة أخرى أقول لك: **ليس أجمل من الثورة غير البكاء.**

الرباط ـ علاء الدين محسن

«الممكن من المستحيل»:
بين التصوير الواقعي، والتفلسف

إسهاما في التقارب بين أدباء المغرب العربي والتعريف بأدبهم، ومشاركة في الحوار، وتبادل الرأي، يسرني أن أقدم هذه الدراسة المتواضعة حول مجموعة عبد الجبار السحيمي، التي تحمل عنوان: «الممكن من المستحيل». تضم المجموعة ست عشرة قصة متنوعة المواضيع ولتسهيل تناولها، نستعين على ذلك بتصنيفها الى ثلاثة أنواع من القصص: القصص الاجتماعية، والقصص التأملية الفلسفية وقصص ليست من هذه ولا من تلك، وهي في نظري لا تنطوي على كبير أهمية من ناحية المحتوى، وأذكر منها مثلا: الزلزال، وفي منتصف الليل، والرصيف رقم 13.

1 ـ القصص الاجتماعية:

في هذا النوع من القصص، يميل الكاتب الى التصوير الواقعي، والبساطة في التعبير، ويستعمل لغة سهلة طيعة ويختار شخصياته دائما من الطبقات الشعبية الفقيرة، ولا يصورها تصويرا مزيفا بعيدا عن الواقع، ولا يتخذ منها أبطالا بالمعنى المعروف في القصة التقليدية، وإنما يصورها كما هي بجميع محاسنها وعيوبها، بجميع خلفياتها الاجتماعية والثقافية والفكرية والعقائدية، فهي شخصيات منتزعة من الواقع الحي بكل جذورها. يقدمها الكاتب وهي تضطرب في حياتها اليومية، منصرفة الى همومها ومشاكلها،

البعض منها يبحث عن عمل صغير يرد به غائلة الجوع، والبعض يتاجر في أشياء زهيدة ليحصل في آخر النهار على ما يسد به الرمق، البعض يبحث عن الخلاص من ضائقة مالية، والآخر يبحث عن دواء لطفله المريض أو زوجته المريضة، الكل غارق في هموم صغيرة ومتعلق بآمال محدودة، ولكنها من جهة أخرى هموم كبيرة وآمال بعيدة، لأنها تشكل حياة هؤلاء الناس وتصبغها بصبغة الشقاء أو السعادة.

في قصة «والشمس تشرق دائما» تقابلنا شخصية رجل فقير الحال، كثير العيال، كان يشتغل منذ مدة في صناعة الأحذية، (البلغة) التقليدية، ولكن المصانع الحديثة التي كانت تقذف بملايين الأحذية الى السوق، قتلت هذه الصناعة، ولم يعد هناك أحد يلبس البلغة «وإذا لبسها بعض الشبان فلكي يجذب إليه الانظار، ويسخر قليلا مع أصدقائه». فدفع هذا الرجل ـ كما دفع أمثاله ـ للبطالة والعوز، وتعرض أطفاله للجوع.

خرج في الصباح الباكر، وهو يحدث نفسه، «هذا اليوم سوف يأكلون الخبز ولكنه كان يفكر أنه منذ ثلاثة أيام تمتم نفس الكلام ولكنهم لم يأكلوا الخبز».. وهكذا تصبح المشكلة الأساسية التي تشغل هذا الرجل وتملأ حياته «هل سيأكل الأطفال الخبز» ويفكر في كل شيء.. في إيجاد عمل.. في السرقة.. في معجزة تحدث فجأة.. في كل شيء.. ويصيح في الأخير. كما صاح أرخميدس عند اكتشافه لقانون الكثافة في السوائل «وجدتها.. وجدتها، ويسرع الخطى نحو شارع كبير، ويقف أمام أحد المكاتب ويقرأ الصفيحة المعلقة فوق الباب «مكتب بيع الدم» ويدخل وهو يحدث نفسه «بعض من الدم لا يضير. نصف لتر ثمنه خمسة دراهم»

وخرج بعد قليل وهو يحمل بعض الدراهم في يده، ويفكر أنه سيعود مرة أخرى إذا احتاج أبناؤه الخبز ولكن أمله لم يمتد به أكثر من عدة أمتار، فسقط على باب المكتب «وجرى الشاوش الى الباب بعد أن سمع ارتطام الجسم الطويل بالأرض، وردد بلا حزن: واحد آخر».

وفي قصة «الريال» نجد أيضا شخصا معدما، بطالا، يبحث منذ شهور عن عمل، فلا يعثر عليه، رغم أنه يحمل زادا من الثقافة. بلغ به اليأس مرة أشده، فتمنى أن لو صار كلبا، فهو حينئذ يستطيع أن يملأ بطنه على الأقل، بالعظام الكثيرة التي تقذف بها الناس في صناديق القمامة «وقد تعجب به إحدى العجائز الثريات، فتأخذه ليصبح كلبها المدلل». ويتذكر أنه مرة قرأ إعلانا في جريدة، يبحث صاحبه عن قطة صغيرة.. ويعلق على ذلك بقوله إنني ضائع منذ شهور دون أن يبحث عني أحد.

ويطول به التجوال في الشوارع والأزقة «ويكاد يسقط تحت ثقل أفكاره من مستوى شهادته الابتدائية.. وبطنه الفارغ» ويحس بوطأة الجوع تشتد عليه، فيفكر في استجداء بعض المحسنين شيئا من الخبز، ويروح يتفرس الوجوه، ويختار منها ما تبدو عليه علائم الطيبة حتى لا يرده عندما يسأله.. ويستطيع بعد فترة من الوقت أن يميز وجها، تلوح منه علائم الطيبة والشفقة، فتتعلق به عيناه، يراقبه من بعيد.. ويتنبه الوجه الطيب الى الشخص الذي يراقبه.. فيقف مفكرا، ثم يتقدم نحوه في خجل ظاهر «هل تسمح، إنني جائع منذ الأمس».. وفي غمرة الخجل والاضطراب يدس يده في جيبه، ويخرج الريال الوحيد الذي يمتلكه ويضعه في الكف النحيلة التي كانت ممتدة إليه في استحياء. ثم يواصل

طريقه، وقد امتلأت عيناه بالدموع، ولم تلبث الدموع أن تحجرت في عينيه وذابت، بعد أن فكر في نفسه، واكتشف أنه رغم جيبه الفارغ يستطيع أن يساعد الآخرين.

أما قصة «حمدان» فهي تصور حياة موظف صغير في المحكمة مستقيم السيرة، ولا يقبل الرشوة مثلما يقبلها زملاؤه الآخرون، يتقاضى مبلغا زهيدا في الشهر، لا يسمح له إلا بعيش الكفاف، ومع ذلك فهو راض عن حياته وقانع بنصيبه، منها.. وقد استطاع بخلقه القويم وقناعته وعفة ضميره أن يتغلب على إغراءات أصحاب القضايا، إلا أنه لم يستطع التغلب على صراخ زوجته في الصباح وفي المساء، وعلى مطالبها الباهظة الثمن، والتي لا تسمح بها جرايته الشهرية. تقول الزوجة «بيت بلا ثلاجة، بلا تلفزيون، ما قيمته؟» فيجيبها بهدوء «زهرة، أنت تعرفين الحالة كلها، من أين آتيك؟» فتصرخ في وجهه:

ـ وأسيادك الآخرون؟ وزملاؤك في المحكمة؟ أليست أحوالهم مثل أحوالك؟ فكيف إذن اشتروا الفيلات والأثاث الفخم، والتلفزيون والثلاجة والسيارة؟

ويحاول أن يفهمها بهدوء وبدون ضجيج أو صراخ، ولكنها لا تريد أن تسمع كلامه.

سألتها مرة إحدى جاراتها «لماذا لا يتقبل الرشاوي مثل زملائه؟ ومنذ ذلك الحين عرفت زهرة كل شيء».

ـ افعل مثلهم، لماذا نظل وحدنا على هذه الحال؟

ويغضب حمدان، ويثور، ويمتلىء صدره غيظا، ولكنه يلوذ بالصمت، وفي الصباح، وقبل أن يقوم من نومه، وقفت ابنته عند

رأسه وسألته: أبي متى تشتري لي حذاء؟ وتدخلت الأم لتقول له ابنتك تمشي كأنها حافية، هل رأيت ثقوب حذائها؟ ويغضب حمدان، فينفض الغطاء من فوقه وتتحرك يده لتصفع البنت.. ويرتفع عويل الطفلة، فتقول زهرة في حزن: ذل الرجال، تطلب منك حذاء فتصفعها. ويستقبل صاحبنا يوما سيئا للغاية، فيقوم من فراشه وينطلق الى المحكمة وقد امتلأ قلبه غضبا وحزنا.. إنه يحب أولاده، ويحب زوجته، ولكن الحاجة قضت على سعادته وهنائه.. وفي طريقه الى المحكمة تذكر الحاج بوشعيب، فمنذ أيام وهو يحاول إغراءه بمبلغ من المال، مقابل إحراق ملف خصمه.. وقرر حمدان في نفسه شيئا، وعندما وصل «مد يده من غير سلام يلتقط مائة ألف، وكان الحاج بوشعيب يضحك بخبث: أحرق الملف كاملا، كل زملائك يفعلون ذلك يا حمدان».

وبعد أيام اشترى التلفزيون للبيت، واشترى حذاءا جديدا لابنته، وعادت البسمة والاشراقة لوجه زوجته، ودخل السرور على قلوب الأطفال..

«وصاح حمدان كأحمق: اسمعي يا زهرة، إنني لن أفعل ذلك بعد ثم أغرق في بكاء ندم، لم يكن يفهمه أحد».

وأما قصة «الأصباغ» فيعالج فيها الكاتب نظرة بعض المتزمتين للنساء اللائي يعشن في بيوت الدعارة، دون محاولة فهم الظروف التي قادتهم إليها. فهن في نظر بطل القصة:

«قد فقدن إنسانيتهن، وماتت عواطفهن، وماتت قلوبهن، وانغلقت فيهن كل النوافذ التي يمكن أن تشرق منها شمس ولم يعدن صالحات لشيء».

أمام إلحاح زملائه، نزع هذا الطالب وقاره وتزمته، وذهب معهم الى «مجتمع القذارة» كما يسميه، وفي وسط الدخان والأصباغ والضحكات، يبقى منطويا على نفسه، فتحاول إحداهن أن تجذبه إليها، فيردها في كبر قائلا: «أنا جئت مع الأصدقاء فقط». وتنصرف عنه، ثم تعود لتسأله بعد هنيهة: هل أنت زميل لهم في الجامعة؟ فيجيبها: نعم. فتقول: الله يعينكم. ويتعجب من ذكرها لاسم الله على لسانها «فليس هذا المكان صالح لذكر الله، انها تفعل ذلك وسط الأصباغ والقذارة». ويعود الى صمته وانطوائه مرة أخرى، وتحاول من جديد أن تخرجه من صمته، وتلين شيئا من صلابته، فتقدم له السجائر، فيرفضها بجفاء وتنطلق معه في الحديث وتروي له شيئا من حياتها، دون أن يطلب منها ذلك. فتقول له أنها هي أيضا كانت تقرأ، وكان أبوها إمام مسجد، وقد توفى وتركها وحيدة يتيمة ويقع قولها الأخير في أذنه وقعا غريبا، ويعجب مرة أخرى، ويقول في نفسه: ابنة إمام مسجد، وتفعل هذه الفعال؟ !وسألته، هل لديه أخوات، ويتحرج أول الأمر من سؤالها ثم يقول لها ولماذا هذا السؤال، فتجيبه: لو كان لي أخ أكبر مني لما وصلت الى ما أنا فيه.. فالحاجة هي سبب كل بلاء.. وتهزه عملية المقارنة التي جرت في ذهنه بالرغم من إرادته، وتصيبه في الصميم.. ومضت في حديثها، فراح ينصت إليها باهتمام، ويستأنس بحديثها شيئا فشيئا، وأخذ عقله يتفتح، ويدرك الظروف التي قادت هذه المخلوقة التعسة الى «مجتمع القذارة».

وعندما خرج، كان مقتنعا تماما، أن أغلب هؤلاء البائسات كن ضحية الفقر واليتم والضياع وعدم الرعاية والمجتمع هو المسؤول عن شقائهن وبؤسهن.

2 ـ القصص التأملية الفلسفية :

في هذه القصص، يجنح الكاتب الى التفلسف والتجريد، واستعمال الرمز، ونجد ذلك مثلا في قصة «السجن الكبير» وهذه القصة تعتبر في نظري أهم قصة في المجموعة، وأغناها بالأفكار والتأملات.

ففي هذه القصة يعالج الكاتب مفهوم الحرية والعدالة، وينطلق في ذلك من تأملات سجين حكم عليه بالسجن المؤبد.. وحسب ما يذهب إليه الظن عادة، وتؤيده التجربة أيضا السجين مهما اتسع له الوقت للتفكير والتأمل، فإن فكره يظل يحوم باستمرار حول الحادثة التي قادته الى السجن، ويظل يكررها بلا ملل، ويقلبها من جميع جوانبها، ويكون عرضة للندم وتأنيب الضمير، وفي هذه الحالة يهون كل شيء في نظره، ويبدو له ما يلاقيه من ظروف السجن، حتى لو اتسم بالشدة والقسوة، هينا وضئيلا، إذا ما قيس بجريمته، ولا يسمح لنفسه بانتقاده مطلقا.

إلا أن سلوك السجين الذي قدمه لنا القاص، يختلف تماما عن هذا السلوك الذي ذهبنا إليه، فهو لا يذكر جريمته أبدا، ولا يظهر أي ندم عليها، ولا يلوم نفسه عن المصير الذي قاده طيشه إليه، ولولا وصفه لنفسه مرة بأنه مجرم، لاعتقدنا أنه مظلوم، ولربما ذهب بنا الظن الى أنه تائر أو مفكر، أو مصلح حكمت عليه بعض السلط الجائرة بالسجن المؤبد.

إنه سجين فيلسوف، يصلح أن يكون أستاذا في الجامعة، كما قال له السجان مرة، ينتقد النظام، والقانون، والعقوبة، والحرية، ويعيد النظر في كل هذه المفاهيم.

يبدأ حواره مع نفسه يتأمل حالة سجين كان زميلا له في الزنزانة أعطوه الفطور في الصباح، والدواء ضد الزكام، وفي المساء، أخذوه لينفذوا فيه حكم الاعدام. ويعجب من هذه «الانسانية» المطبقة في السجن، بل يسخر منها، ويبتسم في اسخفاف، إذ ما هو الفرق بين أن يموت جائعا، ومختنقا بالزكام، وبين أن يموت ممتلىء البطن، وفي صحة جيدة، ويقارن بين حالة المحكوم عليه بالاعدام، وبين حاله هو، ويتساءل عن الفرق بين أن يعدم الشخص، وبين أن يبقى سجينا مدى الحياة، يحيا في قبره مدة ثلاثين أو أربعين أو ستين أو مائة سنة؟ الفرق في نظره هو هذا «أنا أفتح عيني وأملأ فراشا، وصاحبي الآخر أغمض عينيه، ولم يعد يملأ فراشا، ذلك هو كل الفارق بين حياتي وموته، بينما نشترك في كل شيء آخر.. الموت هنا هو الحياة، والحياة هي الموت».

وبينما هو غارق في تفكيره يدخل عليه السجان، ويخبره بأنه سينتقل غدا بأمر من الطبيب الى سجن آخر بعيد عن رطوبة البحر، لأنه مصاب بالسل.

ويأتي هذا الخبر ليفتح له مجالا آخر للتأمل والتفكير.

كم كان يخشى السل، ولكنه الآن لا يحس أي حزن لذلك. ففي السجن يستوي السليم والمريض ويتخيل السجن الذي سينتقل إليه.. سوف لا يكون هناك فارق يذكر «فالسجن في أي مكان هو السجن بلا أي فارق». كل ما هناك أن الزنزانة ستحمل رقما آخر..

في الصباح، كان هو والسجان في طريقهما الى السجن الجديد، وكانت الطريق بعيدة.. وأثناء الرحلة تخلى السجان عن صرامته تجاه السجين، وراحا يتحدثان كصديقين حميمين، وضحكا معا

أكثر من مرة . . وتحدثا عن السجن مرة أخرى . . قال السجين :

ـ سوف يصلحون لنا السجن .

أجل سوف يصبح كالجنة .

ـ ولكنه سيبقى سجنا . . جنة بلا حياة ، بلا حرية ، ماذا تفعل في جنة لا حرية لنا فيها؟

ويستغل القاص هذا الحوار الدائر بين الرجلين ، ليعبر منه الى ما وراء أسوار السجن ، فيتطرق الى مسألة الحرية كمفهوم وكحقيقة .

يقول السجان : «أنت مكانك في الجامعة . . أستاذ في الجامعة .

ـ ولكن ذلك لم يمنع من أن أكون مجرما في السجن إن الأمرين عندي لا يختلفان ، هنا أو هناك ، مخلوقات تنقصها الحرية .

ويضيف قائلا : (وهي إضافة لها معنى) ـ راقب الطريق حتى لا تموت في حادثة تافهة»

ووصلا في منتصف الليل ، وطرق السجان الباب ، ودار حديث قصير بينه وبين الحارس ، وباختصار : كانت الأوامر تمنع فتح باب السجن ليلا . . فعاد السجان وهو يبتسم قائلا للسجين : ها أنت مرة أخرى تتمتع بالحرية ، ليلة أخرى تقضيها خارج السجن .

ـ خارج السجن ، داخل السجن لا فارق ، فأنا سجين في كل مكان ، محكوم على بإحساس أنني سجين .

ويلتفت السجان «بهدوء من عرف كثيرا» ليلخص الموقف كله ، وهـو على ما يبدو واضحا موقف الكاتب وهدفه من وراء قصته ، فيقول : «عندما لا تنبع الحرية في أنفسنا ومنها ، فإن السجن سوف يكون لنا في كل مكان . . في وطن الحرية ، يكون السجن ، إذا لم

تكن حريتنا تنبع منا.. الحرية لا يصنعها المكان.. لا يصنعها الآخرون.. القاضي وأنا والقانون».

في قصة «حكاية حزينة» يعالج الكاتب موضوع «المدينة» وهي عنده رمز لعالم اليوم، عالم الحضارة الحديثة بآلاتها وتعقيداتها الشيء الذي جعل الانسان يشعر معها بالغربة والوحشة والضعف. وقد تكرر رمز «المدينة» في عدد من قصص السحيمي، ونلاحظ من خلالها أنه يكره المدينة ويحتقرها، ليس فقط، لأنها طبعت حياة الانسان بطابع الآلية، ولكن أيضا لانعدام العدالة والانسانية فيها، فالظلم الاجتماعي إحدى السمات البارزة في مجتمع المدينة. «حكاية حزينة» تروي لنا قصة عامل قديم، رأى مدينته وهي مجرد قرية صغيرة محدودة السكان والبنايات، وها هي اليوم ـ أي بعد عشرين سنة ـ قد كبرت واتسعت وصارت مدينة صناعية كبيرة.

ومع هذا التطور الهائل، يشعر العامل بالغربة والضياع، ويحس كأن المدينة قد ابتلعته، ولم تعد تشعر بوجوده، ويحاول أن يعطي معنى لحياته، ولكنه لم ير فيها إلا مجرد رقم، وهو الرقم الذي يحمله في المصنع.

«ولطالما وقف أمام المرآة يحاول أن يكون شيئا آخر غير هذا الرقم. ولكن المرآة تطالعه بوجه لا يعرفه أبدا. ومن خلال دخان الفافوريت، يطلع الرقم كبيرا، 1431».

ذات يوم، كان يجلس في مقهى، فخطرت له خاطرة، فأخرج القلم، وكتب على ورقة بيضاء.

«هل أنت مثلي سحقتك المدينة، فلم يعد لك وجود فيها أنا

وأنت نحقق هذا الوجود، إذا اجتمعنا معا، لنكن أصدقاء إذن، وتعال الي مساء الأحد القادم في خط الأتوبس رقم 5، فسوف أظل أنتظرك هناك.. وعلامتنا وردة بيضاء في يد كل واحد منا».

وألقى بالرسالة.

وتشاء الصدف أن تلقى الرسالة في يد فتاة في العشرين، وجدت الرسالة في نفسها هوى، فانطلقت الى الموعد المضروب ووقفت تنتظر، وبيدها وردة بيضاء، وانتظرت.. وطال انتظارها، حتى ملت، ثم يئست، فرمت بالوردة على الأرض، وعادت من حيث أتت، وهي تمسح بيدها دمعتين، وفي صباح الاثنين، نشرت إحدى الصحف في ركن لا يثير الاهتمام «داست حافلة مساء أمس رجلا مجهولا كان يقطع الشارع دون انتباه، وكان يحمل في يده وردة بيضاء» بهذه النهاية المأساوية، يضع الكاتب حدا لحياة البطل، وهكذا يكمل الاطار الذي رسمه له.. فقد سحقته المدينة معنويا، وها هي في الأخير تسحقه ماديا، وتدوسه كحشرة تافهة لا يضير الناس أن تحيا أو تموت.

والواقع أن القصة حزينة حقا، وتشمل على معاني إنسانية كبيرة إلا أن هذا لا يمنعنا من أن نوجه للكاتب ملاحظتين: الأولى هي أن البيئة الصناعية التي صورها الكاتب، بعيدة عن المجتمع المغربي، بل عن المجتمع العربي كله.

والملاحظة الثانية هي أن الكاتب لم يحسن اختيار بطله حينما جعله من الطبقة العاملة.. فالعامل لايشعر أبدا بأنه مجرد رقم في مصنع، بالعكس يشعر بأنه ينتمي الى طبقة واسعة، قوية، منظمة، متضامنة، هي طبقة العمال والكادحين، وهو من ثمة

يستطيع أن يناضل ضمن هذه الطبقة، وأن يجعل من حياته شيئا هاما بالنسبة له، وبالنسبة للآخرين.

3 ـ النوع الثالث من القصص:

من هذا النوع «الرصيف رقم 13» ويتحدث فيها الكاتب عن خوف بعض الناس من ركوب الطائرة، ويعتني بتصوير الهواجس والخيالات التي تنهال عليهم، فيظلون خائفين متوجسين، متطيرين من كل ما يحيط بهم، ينتظرون الموت في كل لحظة، ولا يصدقون بنجاتهم إلا حينما تنزل الطائرة على أرض المطار.

ومن هذا النوع أيضا قصة «في منتصف الليل» وخلاصتها أن الشخص يستطيع إذا ضايقته ذبابة أن يقتلها وأن يبعد المنبه إذا أزعجته دقاته، وأن يغلق حنفية الماء جيدا إن أزعجته قطراتها.. يستطيع أن يتخلص من كل هذه الأشياء المزعجة، ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من جسم زوجته التي تنام بجانبه، ذلك ما يوده أحيانا ولا يستطيعه. وقس على هذا قصتي الزلزال، والفرار، فهما على هذا النمط من التصوير والتفكير.

بقي في الأخير، بعدما استعرضنا عددا لا بأس به من قصص المجموعة، أن نتساءل عن قيمة هذا العمل الأدبي، وعن أثره في دفع القصة المغربية الى الأمام؟

يقول القصاص المغربي المعروف محمد الصباغ في صاحب القصص «قطعة فريدة هذا الفتى.. هذا الذي يطرق بالكلمة الكبيرة ـ كل صباح ـ الأرتاج الصدئة، ثم يمضي في طريقه، بسيطا، كقمحة، كغصن نعنع، ولا يلوي وراءه».

ويقول في قصصه «قبل أن يأتي هذا الوجه في سياق الرؤية،

كانت القصة في هذه الرقصة ضربا من الخرافة، ترسل في الأسمار» وقد نرى في هذا القول ـ أن القصة كانت ضربا من الخرافة ـ بعض المبالغة، ونرى فيه غمطا لجهود القصاصين المغاربة الآخرين أمثال غلاب، وبن جلون، وبوعلو، والصباغ نفسه، ولكن مهما يكن فإن هذا العمل الذي قدمه السحيمي، يعد بذرة طيبة في أرض القصـة بالمغرب، وجهدا معتبرا، يضاف الى جهود من سبقوه في القصة المغربية، والقصة العربية على السواء.

أحمد منور ـ الجزائر

«الممكن من المستحيل»:
صوت ينتمي إلينا

تريد هذه المجموعة القصصية القصيرة لعبد الجبار السحيمي، أن تنتمي الينا، أي أنها تجيء مستوفية الشروط الموضوعية للقصة القصيرة دون أن تفتعل الادهاش أو الاشعاع الاعلاني. من ذلك، مثلا، أنها تنطلق أساسا من الأرض وليس من السماء كما يوهمنا بعض الكتاب «المدهشين» ! كذلك فهي تنطلق من الحاضر لا من الماضي باعتبار أن الحاضر نافذة مفتوحة على المستقبل، وفعلا فهي تنجح في ذلك الى حد ما: كونها تنطلق من الحاضر لا من الماضي (وهذا لا يشفع لها أن الحاضر قد استوعبته) كونها لا تعطينا بديلا آخر لهموم الانسان في العالم سوى الحلم، والأمل، كونها لا تعطي أجوبة عن القضايا الانسانية الراهنة المعقدة بقدر ما تغرز فينا مشاعر دافئة متحدية ثم تمضي تاركة إيانا نمتص اللحظة الراهنة مثل «الآيس كريم» تذوب في شفاهنا. وأيضا كون عبد الجبار نفسه كاتب قصة يملك صوتا متميزا عنا جميعا وينتمي الى هذا الجيل المهموم نفسه الذي ننتمي إليه بالرغم عنا، جيل يقلق سريعا ويعبث سريعا ويدين الجمود والجهل حيث يتوهم أنه يملك قضية فإذا به يفقد حتى البديل ولا يملك سوى الهروب والادانة والرفض. وطبعا فهذه خاصية مشتركة نتقاسمها مع الجيل الآخر في العالم، لكن الجيل الآخر نفسه تجاوزنا لأنه حقق على الأقل

بعض الارهاصات الثورية التي جعلتنا نمضغها في المقاهي.

هذه قضية أخرى..

وداخـل إطار «الممكن من المستحيل» كعالم فني ذي رؤية غير عادية وتنبؤية، فإن السحيمي لا يريد منا أن نأخذه أخذا نهائيا: فتلك القصص، كلها، مهما اختلفت في التقنية والموضوعية، مجرد محاولات جادة وصادقة لصوت يريد أن يقول إن هذا العالم غير عاد لأنه لا يسعنا، لأنه لا يسمع همومنا وحماقاتنا وتصابينا، فنحن اليوم أكبر منه، ولكنه يوميا يزداد عداء لنا. وإذا لم يستطع السحيمي أن يقنعنـا، بهذه النظرة أو سواها، فعلينا أن لا نطلب منه أكثر من ذلك: كل صوت نسبي وكل رأي نسبي وهذا هو الأدب. إنه لا يعطي حلولا بقدر ما يسجل فقط. إن الأدب تسجيلي بهذا المعنى. لقد التفت السحيمي حواليه فرأى ما لم يره الآخرون، بهذا يختلف عن الكتـاب «الواقعيين» الذين يسطحون الأشياء والحقائق دون النفـاذ الى جوهـرهـا. لقد جاء وكتب قصصا في منتهى الوضوح وألغى «الزائدة» اللغوية التي «تضر» في الذهن! عانق السحيمي الرومانسية والوجودية عن اقتناع ذاتي من أجل تكوين نظرة خاصة وصبها على الواقع الاجتماعي. فهل نجح في ذلك؟ ليس هذا هو المطلوب الآن. ثم إن المجموعة تبدو لي فوق هذا السؤال الساذج. لا أحد من الكتاب استطاع أن يقول كل شيء وإلا انتهت قضايا العـالم. إن مجموعة «الممكن من المستحيل» أجراس صغيرة فوق سطح ملء بالرماد. وبالنسبة للسحيمي نفسه فإن كتابة جزء صغير من مجمـوعة من الرؤى لازالت تتبلور وتأخذ روافدها من الواقع الاجتماعي المتخلف المتناقض انها لا تتعمق أكثر لكي تفهم الواقع بكـل ما يمثل من تناقض، لكنها تأخذ عينات اجتماعية لتقدمها

تقديما خاصا. (حمدان، العربة، الزلزال) مثلا، لم تستطع قصة «حمدان» أن تقنعني بمحاولة ونجاح عملية الرشوة، ذلك أن نهايتها فسرت كل المحاولات الأولية من أجل أن يسقط «حمدان» في الاغراء ويتلف الملف ويأخذ الرشوة ليشتري لعائلته التلفزيون. ولأن «حمدان» تردد طويلا ثم قبل في الأخير فإن الرشوة والتلفزيون لم يقفا كمطلبين نهائيين، يبقى فقط انه كان واعيا لما فعل، وبهذا صنف نفسه مع الطابور الذي يساهم في توطيد دعائم الفساد.

السؤال الآن: أين تقف «الممكن من المستحيل» من القصة المغربية العربية الحديثة ككل؟ تقف المجموعة بين تيارات أدبية مختلفة، تيارات تحاول أن تكون طلائعية، وتيارات كلاسيكية، وتيارات واقعية فوتوغرافية عفى عليها الزمن. فإلى أين تنتمي إذن؟ كما قلت سابقا فهي تنطلق من الحاضر لا من الماضي، وبهذا المفهوم يجب تناولها. وشخصيا لا أريد أن أسقط عليها بعض المفاهيم النقدية «الراشية» التي تلتجىء سريعا الى «التخريج» وتتجاهل الحقائق الموضوعية المكونة لرؤى الفنان لكي يشكل مادته. إن السحيمي نفسه يرفض ذلك، وأضيف أنا بأن هذا الاسقاط هو آفة النقد العربي الحديث. وبما أن هذه القصص تنبع أساسا من الحياة اليومية، كحياة ذات تناقضات فظيعة، فوجهة النظر يجب أن تنطلق من هذا الأساس: إن «الممكن من المستحيل» تهرب كثيرا من الواقعية السردية الساذجة وتلتجىء الى الواقعية الرومانسية حيث الرؤية الفنية والحلم والأمل أقدر على التعبير عن جميع الحالات الانسانية لأشخاص يمرون دوما من حولنا، كذلك فهي إذ تنبذ الكلاسيكية التشيكوفية تماما وتتشبث بالواقعية الرومانسية تعانق التجريدية معانقة ممتازة وبلا افتعال (الفرار، الميتون، في

المدينة) لذلك صنفت نفسها داخل إطار خاص متميز. وهذا الاطار يعتمد أساسا لمس القضايا من فوق وانتقاء العفوية والشاعرية من أجل إعطاء التجربة بعدا آخر. كلنا يعلم أن الواقعية بحذافيرها لا تذهب بعيدا بالتجربة. وان السحيمي يملك حظا وذكاء في أنه لا ينتمي الى أنصار الواقعية الذين يصرون على أن يقولوا كل شيء لمجرد أنهم يملكون ثروة لغوية، لكن تطور القصة والرواية، في العصر الحاضر، نتيجة التغييرات الاجتماعية عجل بتطوير الرؤية عند الكتاب. وأصبح الكائن الانساني لا يقدم في شكل فيزيقي من أجل إرضاء قطاع معين من القراء. كذلك أصبحت القصة الحديثة تلغي عامل الزمان والمكان لأنهما لم يعودا يشكلان بعدا فنيا قائما بذاته كما كان سابقا. أما الثروة اللغوية، فلم تعد ذات امتياز من أجل كتابة قصة تفسر نفسها بنفسها منذ أول وهلة !

وعلى صعيد السحيمي نفسه، تقف «الممكن من المستحيل» بين خطين يبدوان متعارضين: على حين تقف الذات كوعي مضاد للعالم الذي هو الآخر موقفا مضادا، يقف الكائن الانساني الآخر، المسحوق، ليعلن عن وجهه. وتلعب الذات السحيمية دورا بارزا حين تتعرى أمامنا بلا خجل وتقول لنا: ها أنا، «هذا هو اسمي» (كما عنون أدونيس إحدى قصائده الممتازة) فالسحيمي يومن بأننا، مهما اختبأنا عن الآخرين، فإننا حتما سننفضح أمامهم ذات يوم، وهكذا فالذات الانسانية ذات شبقية وتريد أن تمارس إنسانيتها لأنها ذات رغبة مثل جميع البشر. إن البطل الوحيد، في المجموعة، سواء حمل اسما أم لم يحمله، (لايهم) إنما يريد أن يقتنص اللحظات اليومية كي لا تفوته من عمره، وهو، كغيره من الذين يملكون ذاتا

حساسة، يملك فعلا حماقات وشبقا ينفجران عند كل لحظة خاصة من أجل أن يكون «شاهد» يومه، وهو يوزع اهتمامه عبر كثير من اللحظات اليومية التي يتوهم أنها تمنحه سعادة خاصة. في بعض القصص نحس أن السحيمي يريد امتلاك السعادة لأنه يفقدها بمجرد امتلاكها هنيهة من الزمن (المساء الأخير، الفرار، كما هي العادة، حكاية حزينة).

والواقع أن السحيمي إنما يرصد اللحظات الانسانية بذكاء بارد. حيادى إن شئنا. قصة «الزلزال» و«العربة» و«الشمس تشرق دائما» شرائح اجتماعية للآخر المسحوق، الدوني الذي لا يملك شيئا والذي يريد كل شيء، هذا الانسان المسحوق، اجتماعيا، ماذا سيخسر لو أن الزلزال دمر المدينة؟ لا شيء، الذين يملكون هم الذين سيخسرون. (الزلزال) لكنه يستطيع أن يبيع دمه مقابل الخبز (والشمس تشرق دائما) ولقد استطاع السحيمي أن يتجاوز مفهوم الواقعية الساذجة حين جعل بطل قصة «العربة» يحمل وجهين: إنه حمار لأنه يجر العربة وحمار لأن «العربة ليست له، الآن العربة يجرها حماره» لكن الحمار يستيقظ ذات يوم ليقتل الحمار الكامن فيه: «لاتخافي» إنني سأقتل الحمار هذه الليلة.. (ص117).

التجارب الأخرى مهما اختلفت قيمتها، تتوزع بين السأم الانساني والوحدة الانسانية: «في منتصف الليل» محاولة للتخلص من وهم كائن يظل ملتصقا بنا يوميا، لكن الانتصار يكون أخيرا للجنس باعتباره الامتلاك الأخير والحل الأخير. فمشروع القتل لم يكن إلا مشروعا فقط، وهذا ينفي ذلك القرار بتنفيذ الجريمة. وعندما نشرت هذه القصة كان كثير من القراء يعتقدون أن هناك

«جريمة في منتصف الليل» بيد أن الأمر لم يكن بالطريقة البوليسية أو طريقة هيتشكوك. كان الأمر مشروعا فقط. وبذلك فمحاولة القتل الوهمية لم تكن اختيارا نهائيا: «هذا الجسد هو كل هذه الأشياء. ارم الغطاء عنك إذن، السكين قريب منك في المطبخ، هناك مرة واحدة، اقتل كل ما يضايقك حيث وضعت الساعة. اقتل قرفك وانطلق، وليكن في عينيك بريقهما» وبما أن الجسد الأنثوي كان دافئا فقد أجل مشروع القتل. لكن المرأة كانت قد ماتت في وعيه بمجرد أنه انتوى شرا ضدها.

وإذا كانت «السجن الكبير» قد لخصت عذاب الانسان في العالم، بحيث يصبح العالم نفسه سجنا، فإن الاحساس بالأزمة يتجاوز مفهوم السجن كحقيقة مادية «خارج السجن، داخل السجن لا فارق. فأنا سجين في كل مكان. السجن في كل مكان، أنا سجين لأنني معك محكوم علي بك، محكوم على بإحساس أنني سجين».

والتفت إليه السجان وقال:

ـ اسمع، هل تريد أن تعرف الحقيقة. أنت سجين دائما حتى إذا لم يحكم عليك بالمؤبد، أنت سجين داخل نفسك، وعندما لا تنبع الحرية في أنفسنا ومنها، فإن السجن يكون لنا في كل مكان (53).

على أن عبد الجبار السحيمي لا يعمق الخلفية الاجتماعية التي منها ينطلق. وكما قلت في البداية فإنه يلمس الأشياء فقط دون أن يعمقها، وتبريره الوحيد أنه لا يهتم بالتفاصيل الجزئية، من أجل هذا فتلك المسحة الرومانسية المليئة بالشاعرية، تستطيع أن تخدعنا حتى نتوهم أننا أمام مذكرات ذاتية لا أمام قصص: فالموقف

الانسـاني مطروح بحياد والسحيمي يتعمد ذلك، لأن تلك هي طريقتـه، ولقد سجلت قصته «ميلاد» موقفا آخر ممتازا: فبمجرد قدوم جديد الى العالم بمجرد انتهاء الانسان القديم.

إن «الممكن من المستحيل» وسط الأصوات التي تكتب القصة القصـيرة بالمغرب، آخذة مكانها منذ مدة ولازالت، وباعتبار أنها إضافة جادة، فهي تستقل بنفسها لتعلن أن السحيمي ذو نفس خاص وطابع خاص، ولهجة خاصة. لا عليه إن قبله الآخرون أم لم يقبلوا، فهو يعرف ما يقول.

تبقى قضية فنية بالنسبـة الي أسـاسية: إن السحيمي يضـع لقصصه نهايات تفسيرية تفقد الطعم الذي يحس به القارىء منذ البـداية، مثل «حمدان» و«المساء الأخير» و«الشمس تشرق دائما» . . الـخ. وإذا لم تستطع «الممكن من المستحيل» أن تقنع بعض المثقفين فهي قد قالت كلمتها ببساطة ووضوح بالشكل الذي أراد لها السحيمي نفسه: فأمام جدار صامت لابد من الدق حتى تنفتح حفرة.

ادريس الخوري

«الممكن من المستحيل»:
بين الجنس والطبقة!

إن أغلب الذين يقرأون أدبنا اليوم، كمتذوقين أو كنقاد مصابون بعقدة أنتيجون، وعقدة أنتيجون هذه هي نتاج ذهنية مفرطة في الغلو والاعتزاز بالنفس، والتحقير لكل ما هو سليم ومعافى، وتتلخص هذه العقدة، على حد تعبير الكاتب المسرحي جان أنوي فيما يلي: «أريد كل شيء، لكن على وجه السرعة» واتهامنا لهؤلاء القراء المتذوقين أو النقاد يرجع أساسا الى كونهم يطالبون أدبا فتيا بأن يصبح شيخا وهو لم يتجاوز بعد سنا معينة، إنهم يطالبونه بأن يمارس أعمالا «يدوية» شاقة وهو لم يقف بعد على رجليه استعدادا للمشي، باختصار، إنهم يريدون منه «كل شيء» ثم لا يكتفون بذلك، بل يقترحون أن تتم الأمور على «وجه السرعة»؛ وهكذا تزداد عقدة أنتيجون تضخما وشراسة، فيصبح الكاتب الذي حمل القلم لمدة ست أو سبع سنوات مطالبا بتحقيق ما حققه كاتب غربي أو شرقي مدة ستين أو خمسين عاما، لكن الغريب في الأمر هو أن هؤلاء المصابين بتلك العقدة يعرفون أنهم مصابون وجاحدون وانهم في حاجة الى دواء ثم ينكرون ذلك على أنفسهم وعلى الناس، ويدعون أنهم في مستوى الفهم والادراك، وأن الأدب المغربي الناشىء ظل بعيدا عنهم في الطابق الأسفل من عمارة غرورهم، فلم يستطع الارتفاع إليهم لأنه يتضمن نقصه وموته، إن مثل هذه العقدة التي نجدها في مواقف كثيرة ومتعددة، رسمية وغير رسمية،

لعبت دورها الخطير في إعاقة نمو الأدب والفكر الخالصين وكانت ذريعة المتنطعين في ذلك هو أن أدبنا مايزال مشكوكا في قيمته ومفعوله، مغضوب عليه من طرف «ولاة الثقافة» والفكر، ومع ذلك، وبرغم كل العوائق والاعتبارات، استطاع هذا الأدب بحيوية ـ شأن كل أدب حيوي فارض ذاته ـ أن يسيطر سيطرة نسبية على هؤلاء المتعنتين وأن يغتصب منهم الاعتراف بقيمته، وبالرغم من أن الأدب الحي الأصيل ليس في حاجة الى اعتراف من طرف العصر الذي نبع منه حتى يوجد، فإن أدبنا كان في حاجة الى اعتراف، لأن ظروفه تختلف عن نشأة آداب الأمم، ولأنه كذلك، امتداد تطوري لعصور من الخلق والابداع في مجالات الفكر الخالص، وفي مجالات الآداب والفنون بوجه عام، وهكذا، وسعيا وراء كسب هذا الاعتراف، فإن بعض الكتاب والمثقفين حاولوا مرارا خلق وسائلهم الخاصة لهذه الغاية وتمهيد الطريق لأجيال المستقبل، وحيث أن الأجداد ظلوا يستنزفون في كتاباتهم ما كتبه أجدادهم ويحبرونه على ورق صقيل، فإن هذا الجيل الواعي من الكتاب رفض كل تلك الأفكار الجاهزة والمقولات، لأنها لا تعبر عنه من ناحية ولأنها ـ من ناحية أخرى ـ لا تستطيع أن ترسم طريق المستقبل ولا أن تضع خطاطات تنبؤية منظمة لفكر يبحث عن أصالته وطريقه، وهكذا فإن التفتح على العالم، من وجهة نظر هذا الجيل، هو الشعار الأول لما يكتبه وما ينفذه؛ وقد رفض بكل عزم تلك الحكمة التي أشاعها العالم الرأسمالي والقائلة بأن الانسان خلق ليعيش لا ليستعد للعيش [1]» لأن جيلنا أدرك بكل بساطة أن هذه أنانية مفرطة؛ وأنه اليوم مخلوق لكي يضحي في سبيل الأجيال

(1) كلمة معروفة لبوريس باسترناك. وقد استغلها المثقفون في العالم الرأسمالي الغربي، ورددوها مرارا لصالحهم.

القادمة، فإذا لم يستطع هؤلاء الأجداد الذين يمثلون جهازا قديما في سوق للخردة، أن يفتحوا لنا الطريق، فإننا نعمل بكل نية حسنة، لاحباط كل أبوية مقيتة.

وإذا كانت قد أتيحت الفرصة اليوم لبعض شباب هذا الجيل أن يعلن للعالم أنه ليس متفرجا وأنه يعيش داخل الصراع، فإنه قد استطاع أن يتقن فن الاعلان، ولم يكن كالجيل السابق، مخفيا وجهه داخل كم جلبابه، لقد راودتني هذه الأفكار، التي طالما تمنيت أن أكتب عنها بتوسيع وأنا أنتهي من مطالعة مجموعة «الممكن من المستحيل» لعبد الجبار السحيمي، وكانت صيغ الرفض والاتهام والصرخات المدوية في وجه البؤس من أجل تحقيق مجتمع الكفاية والعدل، كانت هذه الأشياء في المجموعة، وأشياء أخرى مثيلات لها، هي حافزي على رصد ظاهرة التناقض البارزين بين جيل يخفي رأسه في كم جلبابه، وبين جيل شجاع مناضل، وكنت، وأنا أقترح نقاطا لتناول الموضوع، أضع في ذهني أن هذه المجموعة، رغم الهنات القليلة التي أدركتها من وجهة نظر شخصية، تطلع علينا لتعلن أن هناك قصاصا يضيف ـ مع باقي إخوانه القصاصين الشباب ـ شيئا له أهميته، أو على الأقل، شيئا في مستوى الاضافة، لقد قرأت هذه القصص وانتهيت الى أن العالم موجود، ، حاضر، ، والفرد أيضا موجود، ، حاضر، ، ويبدأ الصراع، ، العالم: الآخرون، ، القيم، الأشياء الضغوط الاجتماعية، ، ثم الفرد: قيمه الخاصة، أشياؤه الخاصة، رفضه لهذه الضغوط الاجتماعية، ، مفاهيمه الخاصة واهتماماته الخاصة، ، وهكذا يبدأ الصراع في ساحة ضيقة ، وهناك رفض من طرف مجتمع متخلف، وهناك رفض من طرف فرد يفهم العالم على طريقته، ويفهم العلاقات على

طريقته، والسعادة على طريقته والحب على طريقته، والموت على طريقتـه، وبـاقي القيم، هذا الـرافض لتلك الضغـوط الاجتماعية، يسمـونـه قسرا: إنسان مستلب، بمعنى أنه لا يمكن أن يعيش داخل الجماعة، وقديما قيل في الفلسفة اليونانية: «الانسان الذي لا يعيش داخل المجتمع إنما هو حيوان أو إله»، وهكـذا يبـدأ البـطل في أغلب القصص، يرفض كل شيء، يرفض الألوهية، لأن ذلك مستحيل، ولأنه إنسان، والانسان ليس إلهـا، ثم يرفض الحيوانية، لأن الحيوانية احتقـار ولأنها إهانة، والانسان بكرامته، ليس حقيرا، وليس مهانا، فلا هو عبد ولا هو سيد، وهكذا يريد البطل أن ينفي معنى الطبقة، لأن الطبقة هي وضـع الانسـان وتصنيفـه مثلما تصنف الأشياء والمـأكـولات والطوابع البريدية والأحذية والكراسي وتصنيف الانسان هو نتاج عقلية اقطاعية رهيبة، نتاج مجتمع لا يحترم الانسان، وتصنيف الانسـان كذلـك هو من اخـتراع ذهنية رهيبـة، ذهنية طبقية مريضة، تلك الطبقة التي تصنف الانسان، فاقدة لكل مقومات الانسانية. وقد قال ماركس وانجلز عنها قولتهما المعروفة بأنها تبيع الحب والوفاء والشرف، بالسكر والشمندر والنبيذ [2]، لذلك نقرأ في قصص متعددة هذا الرفض للطبقة، والطموح الى تحقيق مجتمع الكفـاية والعـدل، لأن المجتمـع القديم الرهيب يمنع الحب، ويبيعـه غاليا في قصـة «الفـرار» وهـو يهددنا حتى في حق ممارسة إحساساتنا ويحصي علينا أنفاسنا وهواجسنا، ويتبعنا خارج المدينة وداخلها، في السرير وفي المطبخ وفي كل ذلك لأنه مجتمع قديم، ولأنـه رهيب وقـديم فإنـه ينمي فينا ذلك الطموح البورجوازي،

(2) مأخوذة من «المانفيست الشيوعي».

الطموح الطبقي، ويعودنا على اكتساب أخلاقه وأعرافه، ويفتح لنا كوة للدخول الى حضيرته كيما نبيع الحب والشرف والوفاء بالسكر والشمنذر والنبيذ؛ لأنه يعرف أننا أنقى منه (قصة حمدان)، ، ولأن البطل نقي، فإنه يشعر أنه غير قابل للتسلق، وأنه ليس مؤهلا لذلك، وأن استعداداته لا تسمح إلا بمواجهة العالم بطريقة مشروعة، ، لذلك فقد أكد حمدان لنفسه أنه لن يعود، ، لأنه يريد أن يعيش حياة عادية، وبطرق مشروعة ومعقولة، ، ولكن المجتمع يرفض كل تلك الطرق المشروعة، ، لماذا؟ لأنه قديم (ففي المدينة) البطل يقول له أبوه ارع اخوتك بعدي، «ولكنه لم يوص به أحدا ليرعاه، ثم مات»، ، كما لم يوص أحد أحدا بالمومس في قصة (الأصباغ)، ، فهي تريد أن تعيش عادية بطريق مشروعة، ، لكنها فقدت الوصاية، ، ولكن، ، الطبقة، ، الآخرين يرفضون كل من لا يملك وصاية، فيضطر لبيع ماء وجهه، أو عضوه التناسلي (الأصباغ) أو دمه (والشمس تشرق دائما) أو قوته (العربة)، وهذه الأشياء كلها هي من مميزات المجتمع المعاصر، ، وأقصد به ذلك المجتمع الذي فقد الأمل في الوصول الى الحل، ، مجتمع الانهيار والهزيمة والسقوط، ، أشياء واحدة تميزه: الجنس والطبقة الاجتماعية، أو بكلمة أخرى: بيع الشرف، أو بيع القوة، والشرف والقوة عندما يفقدهما الانسان يصبح حيوانا أو آلة، ، لأن الحيوان ليس له شرف، ، ولا يعي أن له شرفه، والآلة لها قوة ولا تعرف أن لها قوة، فكما أن للقوة قيمة مادية، فإن الشرف أصبحت له قيمة مادية كذلك، ، أصبح تجارة، ، أصبح عمارة، ، أصبح شيئا غير إنساني، ، وهذا كله نتاج تكالب الطبقة التي تكتلت وساندت المجتمع القديم، ، وفرضته على الفرد المسحوق، ، وفي بعض الأحيان تكرمت ودعته إليها مقابل أن يبيع الشرف والقوة، ، ولكن

الانسان الحق مايزال يرفض هذه الدعوة، بل إنه يعلن أنه لا يخسر شيئا ولا يربح شيئا، ، وأن الخاسرين هم هؤلاء، ، (قصة الزلزال) فعندما تهتز الأرض من تحت هؤلاء الذين يعتبرون أنهم يملكون العالم، ، فإن الانسان الحق لا يشعر إذ ذاك بأي خوف ولا رهبة، ، لأنه لا يملك أي شيء، ولأنه بالتالي إنسان، ، والانسان هو إنسان، ، مجردا عن كل قيمه المادية، ، هو إنسان في جوهره، ، والمادة لا تصنعه ولا تعطيع إنسانيته، (قصة الزلزال كذلك)، ، غير أن هناك بعض المفاهيم تبدو كما لو كانت مغلوطة في ذهن الكاتب، ، فهو في بعض الأحيان يسيء بعض القيم، ، ويجيء تشييؤها كما لو كان هدما لباقي القيم الانسانية الأخرى التي بناها، ففي (الفرار) نقرأ: «وهذا هو كل ما تستطيع أن تفعل بحريتها، أن تهربها خارج المدينة، خارج الأعين».

فيبدو لنا كما لو أنه ليس هناك شعور صميمي داخل النفس البشرية بحريتها، ، وأن هناك انفصالا خطيرا، بين الانسان وقيمه، ، وهكذا فإن البطلة التي تأخذ حريتها لاشك ستفقدها، ، أما الحرية في الأصل، أما الحرية كقيمة، أماالحرية كالتزام، فهي نابعة من الذات، ولا أحد يحمل حريته بذلك المفهوم الشيئي، ، لأنه ملتزم بأن يكون حرا، وقد يصح العكس برأي الفيلسوف الوجودي ميرلوبونتي، ، غير أن هذا البطل في «الممكن من المستحيل» وداخل هذا النطاق، ، يظل مع ذلك سيد نفسه، رافضا لقيم مفروضة عليه، غير نابعة من ذاته، وإن كان يبدو مستسلما في بعض الأحيان فاقدا لشجاعته (قصة: «كما هي العادة» وقصة «الريال» التي لا يطالب بطلها سوى بأن يعطيه المجتمع ثقة مزيفة في نفسه)، ، وهذه الأشياء كلها من مساوىء المجتمع القديم، ،

وقد حاول الكاتب أن يصور في بعض الأحيان المفارقات بشكل وهمي، ، ولعل الوهم هو أكبر حقيقة في نظره، جاءت بعض قصصه شبيهة بقصص كافكا (كما هي العادة ـ الميتون ـ حكاية حزينة وقصص أخرى. .) وقد صورها بطريقة الوهم.

كما صورها كافكا في أغلب قصصه (المسخ ـ السجن التربوي) بحيث يبدو ذلك التعذيب الوحشي على جسم انسان في قصة «السجن التربوي» إدانة لمجتمع الانحطاط، وإدانة لمجتمع الانحراف، من أجل طموحه الطبقي، ومن أجل قيم نسبية خلقها لتقيده، وهكذا كان تصوير الوحشية الانسانية، ، في قصص «الممكن من المستحيل» بوهميته تلك أشد واقعية وارتباطا بمجتمع يهدم نفسه، ، واستنتجت ما يلي: «، ، إن كافكا حتى ولو كان وهميا، أسطوري الشخوص فذلك ليس عن رغبة منه، أو نتيجة لفكرة مسبقة لديه، فغريغوار بطل المسخ يرفض هو نفسه الوهم، فعندما فاق ذات صباح ووجد نفسه غير قادر على التحرك كالعادة وقد تحول الى قملة كبيرة، لم يصدق، بل اكتفى بأن تمتم: «ـ ماذا حدث لي؟» ويزيد عدم تصديقه لهذا المسخ المفاجىء ومحاولة منه لابطاله: «ـ لأعد الى النوم، كيما أنسى هذه التفاهات»[3].

تلك كانت وضعية بطل رئيسي عند كافكا، ، فكل تلك الرؤيا كانت تتم على مستوى الوهم، ، وأغلب الظن أنها لم تكن مقصودة، غير أن الفارق الجوهري في قصص (السجن الكبير ـ وحكاية حزينة والميتون) هو أن هذا الوهم كان مقصودا، ، لذلك جاء ارتباط الكاتب بالواقع أشد قساوة وأكثر حدة، ، وربما كان ذلك راجعا الى اتصال خاص بالبيئة التي ينطلق منها كلا

(3) م. زفزاف ـ جريدة «العلم» ـ 31 دسمبر 1964.

القصاصين، ، ونظرا أيضا للفوارق التاريخية، ووجهات النظر الى الوضع البشري الفردي داخل المجموع، كل هذه العوامل تجعلنا نتقبل الرؤيا الخاصة للكاتب، وتجعلنا نحاول أن نفهم ما أمكن، على ضوء المعطيات التي نعيشها أيضا، معنى ومدلول المنطلق، سواء في المفهوم والدلالة أو الشكل والبناء، ، ومعنى أن يكون الوهم مقصودا هنا، هو أن القصص لم تكن في أغلبها خاضعة لخطاطات مسبقة وجاهزة، وإن كانت تحاول مع ذلك الاحتفاظ بالروح الهادفة، ، لأنها أولا وأخيرا قصص رفض، وإدانة، وتحد، ومواجهة، ، وإن كانت في بعض الأحيان كما لو كانت دعوة الى اليأس والمرارة والتخلي (في المدينة) وحب الذات والأثرة، والسقوط في الفردانية المقيتة (الفرار) ففي هذه القصة أيضا نجد البطل جد أناني، وقد اعترفنا سابقا أنه مجرد رافض، ، ولكنه مع ذلك يعاني ازدواجية في العاطفة، ، بمعنى أنه يفرط في حب ذاته، والاستكانة الى ملذاته وأهوائه، وهو لا يجد سعادته إلا في لذته حتى إذا ما قرأنا فصلا لجورج ديهاميل في كتابه «امتلاك العالم» وهو الفصل المعنون بـ«مستقبل السعادة» نجد أن سبب انسحاق البشرية، وسقوطها هو اعتقادها بأن السعادة موجودة في اللذة، وأن اللذة وحدها هي الكافية لتحقيق السعادة، ، غير أن السعادة ليست في الواقع سوى هرمونيا (أي تناسق)، والتي يقول جورج ديهاميل بأننا لا نجهلها، «فالسعادة هي مملكتنا الحقيقية» [4]، ، غير أن البطل في «الفرار» يعتقد أن سعادته مرهونة بهذه الملذات العابرة، فبقدر ما يضايقه المجتمع ويفرض عليه شروطه، بقدر ما يزداد هو في غلوائه وغروره وأنانيته، ، هذه في الواقع ليست اعتراضات، ولكنها توجيهات نحو

(4) ص 27.

هذا التناقض الذي هو سمة من سمات النفس، ، وهكذا فبقدر ما تواجه هذه المجموعة الفرد فتعريه، بقدر ما تعلن أنها كتبت لغاية واحدة وهي إعلان وجهة نظر خاصة تجاه العالم وتجاه الناس، ، وبطبيعة الحال، فنحن دائما حتى في حياتنا اليومية، مطالبون بإبداء وجهات نظرنا الخاصة، وقد لا تهمنا بقدر ما تهم الآخرين واعتقد أن هذه القصص التي تتميز بالشاعرية والتفوق، جاءت لتلخص موقفا واضحا، تجاه العالم، ولتحتفظ لنفسها بميزة خاصة تجعلها متنبئة ومتوقعة وراصدة لمشاكلنا اليومية.

محمد زفزاف

الكتاب والكاتب

• صدر لغيثة بلحاج كتاب «المرشد لتراجم الكتاب والأدباء» تضمن ترجمة للمؤلف، جاء فيها:

عبد الجبار السحيمي: قصاص وصحافي مغربي ولد بمدينة الرباط سنة 1939 وتلقى بها تعليمه الابتدائي والثانوي، عمل وهو في العشرين من عمره محررا بجريدة «العلم» ومشرفا على ملحقها الثقافي الذي لعب دوراً لا يستهان به في التعريف بالأقلام الجديدة والمواهب الشابة التي ترسخت أقدامها في الميدان الأدبي فيما بعد. ساهم في الحياة الثقافية المغربية حيث وقع انتخابه عدة مرات في المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب ومثل بلده في مؤتمرات اتحاد الكتاب العرب.

ويعد عبد الجبار السحيمي من الكتاب القلائل المنتمين لجيل ما بعد الاستقلال الذين يتوفرون على حضور واستمرارية في الكتابة ونشاط دؤوب في الميدان الثقافي في نفس الوقت، وتمتاز كتاباته بسهولة الأسلوب ووضوحه وحسن اختيار المواضيع والتمكن من الجمع، في النسيج القصصي، بين ما هو بنيوي وقار وبين ما هو ظرفي ويومي.

أعماله: عبد الجبار السحيمي من المؤسسين لمجلتين مغربيتين هما مجلة «القصة والمسرح» و«مجلة 2000». وقد أصدر سنة 1969 مجموعته القصصية «الممكن من المستحيل».

يقول بول شاوول في مقدمة حوار أجراه مع عبد الجبار السحيمي: «تجربته القصصية في «الممكن من المستحيل» و«السيف والوردة» إلى جانب متابعته اليومية في الصحافة، ورصده للحركة الثقافية في المغرب، أكسبتاه نضجاً وواقعية في مواجهة المسائل والقضايا الثقافية. ولغته النقدية كلغته القصصية واضحة حادة، دقيقة وصارمة».

صدر عن منشورات «عيون المقالات»

- مبادىء في علم الأدلة: تأليف رولان بارت، ترجمة محمد البكري
- نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب: الدكتور أمجد الطرابلسي
- سوسيولوجيا الثقافة: الطهر لبيب
- دروس في جغرافية المناخ - 1 - عناصر المناخ: أحمد بلاوي
- العرب والنموذج الأمريكي: د. فؤاد زكرياء
- عصر البنيوية: إديث كروزيل، ترجمة: جابر عصفور
- تلك الرائحة (قصص): صنع الله ابراهيم
- رباعيات نساء فاس (العرويات): محمد الفاسي
- المكتبة السينمائية - 1 - التصوير: لوي دي جانتي
- المكتبة السينمائية - 2 - الاخراج: لوي دي جانتي
- المكتبة السينمائية - 3 - الحركة: لوي دي جانتي
- المكتبة السينمائية - 4 - المونطاج: لوي دي جانتي
- الجذور الفلسفية للبنائية: د. فؤاد زكرياء
- ينابيع الثقافة ودورها في الصراع الاجتماعي: بوعلي ياسين
- الماركسية والنقد الأدبي: تيري إيجلتون، ترجمة: جابر عصفور
- عبقرية الصديق (مقالات تحليلية): مجموعة من المؤلفين
- رجال في الشمس (دراسات تحليلية): مجموعة من المؤلفين
- الحركة السلفية: مجموعة من المؤلفين
- مدخل الى السيميوطيقا 1: بإشراف سيزا قاسم
- مدخل الى السيميوطيقا 2: بإشراف سيزا قاسم
- انتفاضة الشاوية: أحمد زيادي
- الأسطورة والرواية: ميشيل زيرافا، ترجمة: صبحي حديدي
- في التنظير والممارسة، دراسات في الرواية المغربية: لحميداني حميد
- الأسطورة والمعنى: كلود ليفي ستراوس، ترجمة صبحي حديدي
- القصيدة المغربية المعاصرة بنية الشهادة والاستشهاد: عبد الله راجع
- دروس الجامعة: جماعة من الأساتذة

- الاسلام والمسرح - محمد عزيزة

- سوسيولوجيا الغزل العربي: الشعر العذري نموذجاً: الطاهر لبيب
- التراث بين السلطان والتاريخ: عزيز العظمة
- الصمت الناطق (قصص): خناثة بنونة.
- جرب حظك مع سمك القرش: (مسرحية): يوسف فاضل
- حركية الرأسمالية: ف. بروديل، ترجمة محمد البكري
- التراث بين السلطان والتاريخ: عزيز العظمة
- الصمت الناطق: خناثة بنونة
- المعرفة والجنس من الحداثة إلى التراث: عبد الصمد الديالمي
- الوعي الذاتي: برهان غليون
- قبل السقوط: فرج فودة
- الأغنية الشعبية الجديدة (ظاهرة ناس الغيوان): حنون مبارك
- ويكون إحراق أسمائه الآتية (شعر): د. محمد السرغيني
- مداخل إلى علم الجمال الأدبي: د. عبد المنعم تليمة
- في الحب والحب والعذري: د. صادق جلال العظم
- في الفكر الجدلي: رضا الزواري
- مفهوم الأدبية في التراث النقدي: توفيق الزيدي
- البنى النحو ية: نعوم تشومسكي
- الرواية والواقع: ل. كولدمان، ترجمة رشيد بنحدو
- في مناهج الدراسات الأدبية: حسين الواد
- مستقبل الصراع العربي الاسرائيلي عام 2000: لطفي الخولي
- نقد الايديولوجيا: رضا الزواري
- عن تلك الليلة أحكي (قصص): عبد الحميد الغرباوي
- الايديولوجيا الباردة: كوسطاس بابايانو
- إكسير الحياة: د. محمد عزيز الحبابي
- يتيم تحت الصفر (شعر): د. محمد عزيز الحبابي
- مساجلة بصدد علم تشكل الحكاية: بروب ـ ليفي ستروس، ترجمة محمد المعتصم
- رعشة: محمد الصباغ
- داء الأحبة شعر: محمد عنيبة الحمري
- عملية اعادة البناء والتفكير السياسي الجديد: خورباتشوف.

الفهرس

المساء الأخير	5
حـمـدان	11
في المدينة	19
السجن الكبير	25
الأصباغ	35
مـيـلاد	41
الفـرار	45
والشمس تشرق دائما	51
الزلزال	57
في منتصف الليل	61
العـربة	65
حكاية حزينة	71
الميتون	77
الريـال	83
رصيف رقم 13	89
كما هي العادة	95

شـهـادات

شهادة في ملف دعوى ضد العسف	101
«الممكن من المستحيل» والواقعية المتعقلة	109
الكتابة القابلة للنشر في الزمن البوليسي مدانة	119
«الممكن من المستحيل» بين التصوير الواقعي والتفلسف	125
«الممكن من المستحيل» صوت ينتمي إلينا	139
«الممكن من المستحيل» بين الجنس والطبقة	147

الممكن من المستحيل

إن «الممكن من المستحيل» تهرب كثيرا من الواقعية السردية الساذجة وتلتجيء إلى الواقعية الرومانسية حيث الرؤية الفنية والحلم والأمل أقدر على التعبير عن جميع الحالات الانسانية لأشخاص يمرون دوما من حولنا، كذلك فهي إذ تنبذ الكلاسيكية التشيكوفية تماما وتتشبث بالواقعية الرومانسية تعانق التجريدية معانقة ممتازة وبلا افتعال، لذلك صنفت نفسها داخل إطار خاص متميز.

إدريس الخوري

بقدر ما تواجه هذه المجموعة الفرد فتعريه. بقدر ما تعلن أنها كتبت لغاية واحدة وهي إعلان وجهة نظر خاصة تجاه العالم وتجاه الناس، ، وبطبيعة الحال، فنحن دائما حتى في حياتنا اليومية، مطالبون بإبداء وجهات نظرنا الخاصة، وقد لا تهمنا بقدر ما تهم الآخرين وأعتقد أن هذه القصص التي تتميز بالشاعرية والتفوق، جاءت لتلخص موقفا واضحا، تجاه العالم، ولتحتفظ لنفسها بميزة خاصة تجعلها متنبئة ومتوقعة وراصدة لمشاكلنا اليومية.

محمد زفزاف

منشورات عيون المقالات : ص.ب. 10958 باندونغ البيضاء 01 ت. 31.71.09

د.22